في ظلال القرآن

الجزء الرابع

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

في ظلال القرآن

الجزء الرابع

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه


بسم الله الرحمن الرحيم

« كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، إلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ، قُلْ: فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين * فَمَنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

« قُلْ: صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً، وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

« قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ: يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ؟ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ؟ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ

أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ؟ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

« تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ * وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ، إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ، لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ؛ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ

مِنَ الْغَيْظِ . قُلْ: مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » .

نحن مانزال مع أهل الكتاب منذ أوائل هذه السورة .. ومرة بعد مرة يتضح من السياق كتمانهم للحق الذى يعلمونه ، وجدالهم بالباطل حول إبراهيم وديانته ، وحول محمد ورسالته ، ومرة بعد مرة يجبههم القرآن بالحجة ، ويكشف عما فى جدالهم من انحراف .

فالآن يعرض السياق لمسألة أخرى من هذا الطراز . يعرض لمسألة ما حرمه الله عليهم فى التوراة تشديداً عليهم فى دينهم ، جزاء على ما كانوا يأتونه من عناد وعصيان ، وهم يدعون أن هذا التحريم لم يكن لهذه الأسباب ، إنما كان لأن جدهم إسرائيل ــ وهو يعقوب عليه السلام ــ كان قد حرمه على نفسه ، فبقى محرما على أبنائه .

فإذا جبههم القرآن بكذب ما يدعون ، دعاهم إلى اتباع ملة جدهم إبراهيم ، إن كانوا صادقين فى دعواهم أنهم إنما يتمسكون بما هم عليه لأنه دين أجدادهم ؛ وبين لهم أن دين محمد هو دين إبراهيم ، وأن بيت إبراهيم فى مكة هو البيت الذى يتوجه إليه محمد وقومه .

ومن ثم يترك السياق أهل الكتاب هؤلاء لما هم فيه ، ويتجه بالخطاب إلى الأمة المسلمة ــ كما سبق أن رأينا مثل ذلك فى سورة البقرة ــ مبينا لهذه الأمة تكاليفها ، آخذا فى إعدادها الكامل للجهاد فى سبيل ما حملت من أمانة ، محذراً إياها من خديعه أهل الكفر والضلالة ، ومن الركون اليهم والثقة بهم ، محرضا إياها على التضحية والصبر والجهاد ، مثبتا أقدامها على المكاره والمصاعب فى الطريق .

وهكذا حتى نهاية هذا الدرس . بل حتى نهاية هذه السورة .. فلنمض مع السياق القرآنى فى هذا الشوط منذ الآن :

***

« كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين »

وإذن فقد كان الطعام كله حلالا لبنى إسرائيل ـ إلا ماحرم إسرائيل على نفسه ـ كان ذلك قبل أن تنزل التوراة ، وقبل أن يسجل الله على بنى إسرائيل ما ارتكبوا من آثام استحقوا عليها هذا التحريم وهذا الحرمان . فإذا أحل الله للمسلمين فى الإسلام ما كان قد حرمه على بنى إسرائيل،فذلك عودة إلى الأصل فى الإباحة . فكل الطعام كان مباحا لبنى إسرائيل ـ إلا ما اختار أبوهم أن يمنع نفسه منه فصار سنة من بعده لأبنائه ـ إنما هم الذين تسببوا فى حرمان أنفسهم ما كان فى أصله مباحا ، بما ارتكبوا من المعاصى ، فجاء التحريم خاصا بهم عقابا لهم . ولقد جاء عيسى عليه السلام ليحل لهم بعض الذى حرم عليهم ، فلم يستمعوا له ؟ ثم جاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا هم ينكرون عليه اباحة تلك المحرمات ، مدعين أنها محرمة منذ عهد أبيهم إسرائيل فهى إذن محرمة إلى الأبد ، لا يجوز أن ينسخ تحريمها فى ديانة تجىء !

« قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين »

والتوراة شاهدة عليهم بأن إسرائيل لم يحرم على نفسه إلا أطعمة معينة ، وبأن ماحرم عليهم فى التوراة إنما حرم بمناسبات أخرى ، بعد وفاة أبيهم . والقرآن يجبههم بهذا فلا يملكون له دفعا ، فيسجل عليهم الافتراء ، ويسجل عليهم عاقبة الافتراء :

« فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك ، فأولئك هم الظالمون »

ويترك جزاء الظالمين مبهما . فكأنما وصف الظلم ذاته عقوبة . والواقع إنه لكذلك ، وبخاصة حين يكون مبعثه هو الافتراء على الله ، والادعاء على شرائعه بغير ما أراده ، وهم يعلمون أنهم كاذبون . إنه فى ذاته عقوبة ، لأن الضلال عن الحق والإصرار على هذا الضلال ، مؤذ لنفس صاحبه قبل أن يكون مؤذيا للآخرين ، يجفف فيها ينابيع الخير ، ويتركها فاسدة آسنة جامدة منحرفة عن الطريق السليم .

« قل : صدق الله » . . وإن الله لصادق . ولكن المناسبة هنا حاضرة لتقرير هذه الحقيقة . تقريرها لا لذاتها فهى مقررة . ولكن لما يريد أن يرتبه عليها من اتجاه :

« فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين »

إن مايدعونه من الاستمساك بديانة آبائهم لكذب وافتراء . فلقد كشف الله عن حقيقة ماحرم إسرائيل على نفسه ، وما حرم عليهم الله بسبب من أعمالهم وعنادهم وعصيانهم . ولقد كذبوا فى دعواهم وصدق الله فى بيانه . والله يأمرهم أن يستمسكوا بديانة آبائهم الصحيحة حقاً .

ودين إبراهيم هو الأصل ، وعليه كان يعقوب ، وهو هو دين محمد . فلئن ، أرادوا الصدق حقا فعليهم بدين إبراهيم ، وعليهم إذن أن يدينوا بالإسلام الذى ترجع جذوره إلى ملة إبراهيم ، وأن يتوجهوا إلى البيت الذى بناه ، والذى هو أول بيت خصص للعبادة ، وكتب لمن يلوذون به الأمن ، فقام كالواحة الظليلة فى الهاجرة ، يأوى إليه الخائفون فتسكن من حولهم المخاوف ، وتظلهم سكينة الأمن والقرار ، وتشملهم راحة الطمأنينة والسلام :

« إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

هنا يأخذ القرآن أهل الكتاب بدعواهم . . إن كل حجتهم فى رفض الإسلام أنهم إنما يتبعون دين إسرائيل ودين إبراهيم . وإن كل حجتهم فى إنكار ماجاء به القرآن من تيسير وإباحة لما كان محرما عليهم فى التوراة ، أن إسرائيل قد حرمه على نفسه فهم مأخوذون بما أخذ به نفسه من تحريم . . فها هو ذا يلزمهم الحجة . . إن التوراة لتشهد ضدهم فى مسألة التحليل والتحريم ؛ وإن ملة إبرهيم لتدعوهم إليها ممثلة فى الإسلام . وإن محمداً ليدعوهم إلى بيت إبراهيم ومقامه ليتوجهوا إليه ويحجوا . وإنه لأول بيت خصص لعبادة الله إن كانوا حريصين حقا على ديانة أوائلهم ومناسكهم وآثارهم . وإنه لبيت مبارك فيه للناس هدى ، وفيه للخائف أمن ، فما يثنيهم عنه إلا العناد وإلا الكفر :

« ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » . .

وما هذه التكاليف إلا لخير البشر ، لا يعود على الله منها شىء ، وما هو فى حاجة إلى العباد . فليعملوا لأنفسهم إن كانوا عاملين .

وإن الأمر ليبلغ بهم أن يصدوا غيرهم عن الطريق . ولايدعوا الأمور تسير فى خطوطها المستقيمة . إنهم يبغونها معوجة ، ويحيدون بها عن الاستقامة ، وهم يعلمون الحق ، ويرونه رأى العين . فهو الإصرار إذن على الضلال بلا حجة ولا سبب ولا دليل :

« قل : يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ، والله شهيد على ماتعملون ؟ قل : يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن ، تبغونها عوجا وأنتم شهداء ؟ وما الله بغافل عما تعملون » .

* * *

وحين يبلغ السياق إلى هذا الحد . حين يتبين أن أهل الكتاب لايأبون الإسلام لأن لهم عليه شبهة ، أو لأن عندهم فيه شكا ، أو لأن لهم فى إبائه حجة . إنما يأبونه عنادا ، ويتقولون عليه افتراء ، والتوراة بين أيديهم تجبههم وتكذب دعاواهم . . حين يتبين هذا كله يدع الله أهل الكتاب وشأنهم ، ويتوجه بالخطاب إلى الذين آمنوا ، يحذرهم فتنة أهل الكتاب وكيدهم ، وما يبيتون للمؤمنين من سوء ، وما يريدونهم عليه من ضلال ؟ وينهاهم عن الركون إليهم ، أواتباع رأيهم ، لأنهم لايقودونهم إلا إلى ضلال :

« ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » .

وياله من منكر أن يكفر المؤمنون بعد إيمانهم ، وآيات الله تتلى عليهم ، ورسوله فيهم ؟ ألا إنه لأنكر النكر أن يصير :

« وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ »

أجل إنها لكبيرة أن يغلب الكفر الإيمان ، ودواعى الإيمان حاضرة ، وآيات الإيمان حاضرة ، ورسول الله الذى يدعو إلى الإيمان قائم بالدعوة بين المؤمنين . . وإنها إذن لبعيدة أن يسلموا قيادهم لأئمة الكفر . وإذن فليمسكوا بحبل الله ويعتصموا بالله . لايحيدون عنه إلى رأى يأتيهم من أهل الكتاب ، ولا إلى مشورة منهم ، ولا إلى طريقة من طرائق حياتهم وتفكيرهم . والله قد اختار لهم الخير ، وهداهم سواء السبيل :

« ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم »

هدى إلى الناموس الذى لا يخطىء ولا يتخلف ، وهدى إلى الطريق الواحد الذى ينتهى إلى الحق الخالد ، وهدى إلى الصواب لأنه يسير فى طريقه الذى لاعوج فيه . وإذا كان أهل الكتاب يبغونها عوجا ، فهذا هو الصراط المستقيم فى متناول المؤمنين ، لايتركه ويلجأ إلى مشورة مخالفيه فى الدين ، وإلى طريقتهم فى الحياة وطريقتهم فى التفكير إلا من لايستشعر فى ضميره حقيقة دينه ، ومن لايرتبط قلبه بإلهه .

ثم لفتة روحية من لفتات القرآن التى يهز بها القلوب :

« ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » ...

إنها لفتة إلى الصلة بالله وتقواه. التقوى! ذلك الشعور الوجدانى العميق اللطيف . « اتقوا الله حق تقاته » . . اتقوا الله كما يجب أن يتقى . . ويدعها هكذا مبهمة . . يدعها لكل قلب يحسها كما يطيق ، ويتصورها كما يملك ، ويجتهد فيها ما استطاع . وكلما أوغل القلب البشرى فى هذا الطريق تكشفت له آفاق ، وجدت له أشواق . وكلما اقترب من الله بتقواه ، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ ، ومرتبة وراء ما ارتقى ؛ وتطلع إلى المقام الذى يفنى عنده فلا يحس بالآماد .

« ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون »

والموت غيب لايدرى إنسان متى يدركه . فمن أراد ألا يموت إلا مسلما فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلما ، وأن يكون فى كل لحظة مسلما . فإنه لايدرى إن كان الموت قابعا خلف النفس الذى يتردد ، والذى قد يخرج فلا يدخل ، أو يدخل فلا يخرج .

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فاصبحتم بنعمته إخوانا ؛ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »

وكذلك تجىء الدعوة إلى الوحدة بعد الدعوة إلى الإسلام . فالوحدة فى الله هى جوهر العقيدة الإسلامية ، والارتباط بحبل الله هو وسيلة الوحدة .. والتعبير يسميه اعتصاما فيرسم صورة الالتجاء من خطر الفرقة إلى عصمة الوحدة . إنها عملية احتماء والتجاء واعتصام . والحياة الدنيا متاهة . متاهة شهوات ، ومتاهة عداوات . والاعتصام بحبل الله فيها عصمة والالتجاء إليه فيها نجوة .. هذا الحبل هو شريعة الله وتقوى الله ، والتحاب فى الله ، والاتجاه إلى الله .. فكلها تؤدى إلى التماسك حول محور واحد ، والتجاذب بجاذبية واحدة ، والاتجاه إلى قبلة واحدة ، والتجمع حول هدف واحد ، تسعى له الأمة كلها وتتوخاه .

ويذكر الله المسلمين بنعمة عليهم . نعمة تأليف القلوب ، ورأب الصدوع ، والارتفاع على حزازات الصدور ، والتفانى فى غاية أسمى من الشخصيات الزائلة والأمجاد الفارغة ، والفخر بالعصبيات والأنساب .. وإنها لمعجزة تلك التى تحول شتات العرب فى جاهليتهم وحدة ، وعداوتهم فى الجاهلية مودة ، وتربط على قلوبهم هذا الرباط الذى لم تشهد له البشرية من قبل أو من بعد نظيرا .

والنص هنا يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط : « القلب » فلا يقول فألف بينكم ، إنما ينفذ إلى المكمن العميق : «فألف بين قلوبكم» وهو تعبير مصور مقصود . كذلك يرسم النص صورة لما كانوا عليه . بل مشهدا حيا متحركا يتملاه الخيال ، ويتوقع فى كل لحظة حركة كانت ستكون، لو لم تدركهم معجزة الإيمان :

« وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

فيتصور الخيال هؤلاء الأناسى على شفا حفرة من النار ؛ ويظل يتوقع حركة السقوط المتوقعة ، حتى تتم حركة الإنقاذ المفاجئة . والمشهد شاخص حى تتبعه القلوب واجفة خافقة والعيون تتملاه !

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » ..

وهو بيان بالعبارة وبيان بالصورة . وبيان للعقل والقلب والضمير .

* * *

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ؛ وأولئك هم المفلحون » .

إنها تكاليف الأمة المسلمة ، تأتى الدعوة إليها بعد الإعراض عن خطاب أهل الكتاب ، وبعد دعوة المؤمنين أن يحذروا فتنتهم إياهم عن دينهم القويم ، والهتاف بهم للاعتصام بحبل الله، والاتجاه على هداه .. وما كان ذلك كله إلا استعدادا لأداء الأمانة والنهوض بعبئها فى الجماعة :

الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، تنتدب له طائفة ، يدعوها القرآن أمة تعظيما لها وتكثيرا . . وإنها لفريضة على الأمة المسلمة كلها ؛ ولكنها فريضة لا تملك الأمة كلها أن تنهض بها ، لأنها تحتاج إلى استعداد خاص ، وإلى إعداد خاص. فواجب الأمة إذن أن تندب لها من ينهض بها ، وتعينه كذلك عليها. وعندئذ فقط تسقط الفريضة عن الجماعة الإسلامية متى نهض بها القادرون عليها ، المهيأون لها .. « وأولئك هم المفلحون » المفلحون فى دعوتهم لأنهم يدعون إلى الخير . المفلحون فى حياتهم لأنهم ينفقونها فى أداء فريضة جامعة مكتوبة على الأمة المسلمة . المفلحون فى أخراهم بما قدموا بين أيديهم من حسنات .

والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .. تكليف ليس بالهين ولا

باليسير ، إذا نظرنا إلى طبيعته ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم . وفيهم الجبار المتكبر، وفيهم الحاكم المتسلط ، وفيهم الهابط الذى يكره الصعود .. ولكنه مع ذلك تكليف محبب إلى النفس المؤمنة بالله ، التى لا تعتز إلا به ولا تخشى إلا إياه. إنه يشعر هذه النفس بأن لها فى الحياة وظيفة ، وبأنها لا تعيش لذاتها المحدودة ، إنما تعيش لوظيفة أكبر ، ولمحيط أوسع، ولأفق أعلى من واقع الأرض ، وحدود الحياة .. على أن هذا التكليف هو السبيل لضمان وحدة الأمة وتماسكها وتكافلها ، وتوحيد مفاهيمها للدين ومفاهيمها للحياة . فقد تضل الجموع إذا لم تجد بينها هؤلاء الهداة . .

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ؛ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون».

وهكذا نحن ما نزال فى جو الدعوة إلى الوحدة..أولا بالاعتصام بحبل الله . وثانيا بتخصيص طائفة من الهداة . وثالثا بالتحذير من الفرقة ، والاعتبار بالذين تفرقو واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات ، وما ينتظرهم من عذاب عظيم ، فى ذلك اليوم الذى تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه . .

وهنا يرسم السياق مشهدا من المشاهد القرآنية الفائضة بالحياة .فنحن فى مشهد هول. ذلك الهول يتمثل لا فى ألفاظ ولا فى أوصاف ، ولكنه يتمثل فى آدميين أحياء ، وفى وجوه وسحن وسمات .. هذه وجوه قد أشرقت بالنور ، وفاضت بالبشر ، حتى لتبيض من البشاشة والإشراق ..وتلك وجوه كمدت من الحزن ، واغبرت من الغم، حتى لتسود من الكآبة والانقباض.. وليست مع ذلك بمتروكة إلى ما هى فيه ، ولكنه التبكيت والتأنيب :

« أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

« وأما الذين ابيضت وجوهم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » .

وهكذا ينبض المشهد بالحياة وبالحركة وبالحوار .. فإذا هو مشهد مجسم حاضر لا معنى مجرد باهت :

وتلك طريقة القرآن ...

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق . وما الله يريد ظلما للعالمين . ولله ما فى السماوات وما فى الأرض، وإلى الله ترجع الأمور » .

تلك الصور . تلك الحقائق . تلك المصائر .. تلك آيات الله وبيناته لعباده . نتلوها عليك بالحق. فهى حق فيما تقرر من مقدمات ونتائج . وهى حق فيما تعرض من تصرفات وجزاءات . وما يريد الله بها أن يوقع بالعالمين ظلما ، فهو غنى عن ظلمهم . وهو الذى يملك ما فى السماوات وما فى الأرض وإليه مصير الأمور . إنما يريد الله بترتيب الجزاء على العمل أن يحق الحق ، وأن يجرى العدل ،وأن ينال كل إنسان جزاء ما أحسن أو أساء.فهذا أجدر شيء بعالم لم يخلق عبثا. إنما خلق بالحق ، ليعيش بالحق وينتهى إلى الحق . والحق يقتضى أن يكون لكل عمل جزاؤه ، وأن يكون لكل شيء وزنه ، وألا يترك الناس سدى ، وألا يكون الخير والشر سواء ..

* * *

ومن ثم عودة إلى خطاب الأمة المسلمة ، يعرفها قدرها فى هذه الأرض ، كى تنهض بواجبها عن بينة ؛ ويعرفها بم استحقت هذا القدر ، وبم كانت لها هذه المنزلة :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس » .. أخرجت .. إنه لتعبير يلفت النظر . لفظ أخرج ، وبناؤه للمجهول .. وهو يكاد يشى باليد الخفية المدبرة . تخرج هذه الأمة إخراجا ؛ وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب ، ومن وراء الستار السرمدى الذى لا يعلم ما وراءه إلا الله .. إنهـا لفظة تصور حركة خفية المسرى لطيفة الدبيب . حركة تخرج على مسرح الوجود أمة ! فيالها من يد قادرة مدبرة ، تشى بها لفظة مصورة معبرة !

أما لماذا كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس .. فإنها لم تكن محاباة ، ولم تكن جزافا ولم تكن كما قالت يهود : شعب الله المختار . ولو كفر وفجر وغدر . . كلا ! إنما هو العمل الإيجابى لإصلاح الحياة وترقية الحياة . وإنما هو الجزاء الحق على العمل الحق :

« تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »

إنه النهوض بتكاليف الأمة الخيرة . الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بكل ما فيهما من

مشقة ، وبكل ما حولها من متاعب ، وبكل ما فى طريقهما من أشواك . إنه التعرض للشر، والتحريض على الخير .. وكلاهما متعب شاق . ولكن كلاهما ضرورى لإقامة مجتمع صالح ، وتحقيق حياه تستحق أن تعاش .. ثم هو الإيمان بالله .. وقد تأخر فى النص لأنه يجىء هنا كالباعث للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فما يصبر على تكاليفهما إلا مؤمن يبتغى وجه الله ، ويرتكن فى كفاحه لله . فهذا الإيمان هو السند الباقى للدعاة ، وهم يواجهون طاغوت الشر فى عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة فى عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح وكلل العزائم وثقلة المطامع . وزادهم هو الإيمان ، وعدتهم هى الإيمان . وكل زاد سواه ينفد ، وكل عدة سواه تنهار ..

« ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ».

ولا ستعصموا بهذا الإيمان فى وجه المطامع والشهوات ، التى قادتهم إلى الخلاف ، وقادتهم إلى الزيغ والانحراف ؛ ثم قادتهم فى النهاية إلى الإعراض عن آيات الله البينات .

« منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .

المؤمنون الذين انتهوا إلى الإسلام ، يقودهم إيمانهم الحق بما بين أيديهم من الكتاب . والفاسقون الذين خرجوا عن الطريق ، ولم يسايروا منطق كتابهم فحادوا عن الإيمان .

***

ومن ثم تهوين وتصغير من شأن أهل الكتاب الفاسقين فى نفوس المؤمنين :

« لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ، إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

« لن يضروكم إلا أذى » .. فلن يكون ضررا عميقا ولا أصيلا يتناول أصل الدعوة ، أو يؤثر فى المكانة ، أو يجلى عن الأرض .. إنما هو أذى عارض ، وألم ذاهب .. فأما حين يشتبكون معكم فى قتال فالهزيمة مكتوبة عليهم والنصر ليس من نصيبهم .. ذلك أنه قد ضربت عليهم الذلة وكتبت لهم مصيرا . فهم فى كل أرض يذلون لا تعصمهم إلا ذمة الله وذمة المسلمين ، ذلك حين يدخلون فى هذه الذمة فتعصم دماءهم وأموالهم ، وتنيلهم الأمن والطمأنينة . وباءوا بغضب

الله . كأنما رجعوا من رحلتهم يحملون هذا الغضب عن جدارة واستحقاق ! وكتبت عليهم المسكنة تعيش فى ضمائرهم ، وتكمن فى مشاعرهم ..

ولقد وقع ذلك كله بعد نزول هذه الآية . فما كانت معركة بين المسلمين وأهل الكتاب إلا كتب الله فيها للمسلمين النصر — ما حافظوا على دينهم واستمسكوا بعقيدتهم — وكتب لأهل الكتاب الذلة والهوان . إلا أن يعتصموا بذمة المسلمين . ولقد رعى المسلمون ذمتهم دائما ، وكانوا عند كلمتهم ، فمن استعصم بذمتهم عصم ، ومن استظل بلوائهم لم تدركه لأواء .

ويكشف القرآن الكريم عن سبب هذا القدر المكتوب على أهل الكتاب، فإذا هو الكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء بغير حق ، المنبعثان بدورهما عن العصيان والاعتداء . وإذن فهو الجزاء العدل . إنه الذلة فى مقابل التمرد ، والمسكنة فى مقابل التطاول . والهزيمة فى مقابل الاعتداء .. جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد .

***

وإنصافا للقلة الخيرة من أهل الكتاب ، يعود النص عليهم بالاستثناء ، فيقرر أن أهل الكتاب ليسوا جميعا سواء ، وليسوا جميعا فى هذه الصورة القاتمة التى أسلفها السياق :

« ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين »

وهى صورة وضيئة لمن آمنوا من أهل الكتاب . فقد آمنوا إيمانا صادقا عميقا ، فاستحقوا هذا الاستثناء من تلك الصورة القاتمة الذليلة .. إنهم أمة مستقيمة على الهدى ، قائمة بالعبادة ، مؤمنة بالله واليوم الآخر ، ناهضة بتكاليف الأمة المسلمة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . سباقة إلى الخير مسارعة فيه .. «وأولئك من الصالحين » وهو وصف يمهد له العمل ويقرره الواقع .. وإذن فهم مجزيون على صلاحهم ، ولن يضيع عليهم ما قدمت أيديهم : « وما يفعلوا من خير فلن يكفروه » والله يعلم ما فى القلوب ويجازى عليه « والله عليم بالمتقين » فالجو جو تقوى بما فيه من تلاوة آناء الليل وسجود، وإيمان بالله واليوم الآخر ، ونهوض بالتبعات . مما ينبعث عن التقوى حين تشمل القلوب ، وتغمر الأرواح .

هذا فى جانب . وفى الجانب الآخر الكافرون . الكافرون الذين لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم . ولن تنفعهم نفقة ينفقونها فى الدنيا ، ولن ينالهم شىء منها فى الآخرة ، فهى حابطة هالكة ليس لهم فيها نصيب ..

ولكن التعبير القرآنى لا يذكرها هكذا . إنما يرسم مشهدا حسيا ينبض بالحركة ويفيض بالحياة .

« إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك أصحاب النارهم فيها خالدون . مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ، وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون » .

وننظر فإذا نحن أمام حقل تهيأ للإخصاب ، ثم إذا العاصفة تهب . إنها عاصفة باردة ثلجية . تحرق هذا الحرث بما فيها من صر — واللفظة ذاتها كأنما هى مقذوف يلقى بعنف فيصور معناه بجرسه النفاذ — وإذا الحرث كله مدمر خراب . .

إنها لحظة تم فيها كل شىء . تم فيها الدمار والهلاك . وإذا الحرث كله يباب ! ذلك مثل ما ينفق الذين كفروا فى هذه الدنيا . ومثل ما بأيديهم من نعم الأموال والأولاد .. كله إلى هلاك وفناء ، دون ما متعة حقة ودون ما جزاء .

* * *

وفى نهاية الدرس الذى ابتدأ بيانا لما فى سلوك أهل الكتاب من انحراف ، وكشفا لما فى جدالهم من مغالطة . واتجاها للمسلمين أن ينهضوا بتكاليفهم دون أن يلقوا بالا إلى المنحرفين المغالطين .. فى نهاية هذا الدرس يجىء التحذير للمؤمنين من أن يتخذوا من أعدائهم هؤلاء بطانة ، وأن يجعلوا منهم أمناء على أسرار المسلمين ومصالحهم وهم لهم عدو .. يجىء هذا التحذير فى صورة شاملة خالدة ، مانزال نرى مصداقها فى كل وقت وفى كل أرض . صورة رسمها هذا القرآن فغفل عنها أهل القرآن ، فأصابهم من غفلتهم وما يزال يصيبهم الشر والأذى والهوان :

«يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ، ودوا ماعنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر . قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل

من الغيظ . قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا. إن الله بما يعملون محيط».

إنها صورة كاملة السمات ، ناطقة بدخائل النفوس ، وشواهد الملامح ، تسجل المشاعر الباطنة والانفعالات الظاهرة ؛ وتسجل بذلك كله نموذجا بشريا مكرراً فى كل زمان وفى كل مكان . ونستعرضها اليوم وغدا فيمن حول المسلمين من أعداء يتظاهرون للمسلمين بالمودة ، فتكذبهم كل خالجة وكل جارحة . وينخدع المسلمون بهم فيمنحونهم الود والثقة ، وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخبال ، ولا يقصرون فى إعنات المسلمين وبذر الشوك فى طريقهم ، والكيد لهم والدس ، ماواتتهم الفرصة فى ليل أو نهار .

والمسلمون فى غفلة عن أمر ربهم بألا يتخذوا من هؤلاء بطانة ، وألا يجعلوا منهم حفظة لأسرارهم وهم عليها غير مؤتمنين . . المسلمون فى غفلة عن أمر ربهم هذا يتخذون من أمثال هؤلاء مرة خبراء فنيين ، ومرة أساتذة ومربين ، ومرة حلفاء ومستشارين .

والمسلمون فى غفلة عن تحذير الله لهم يوادون من حاد الله ورسوله ، ويفرغون أسرارهم وأخبارهم لأعداء دينهم ، الذين لايرضيهم شىء كما يرضيهم العنت يحل بالمسلمين ، والفرقة تأكل صفوفهم ، والخداع يذهب بهم إلى الفخاخ المنصوبة . .

والمسلمون فى غفلة من دينهم يؤلفون جماعات الصداقة بينهم وبين أعدائهم هؤلاء ، ويفتحون لهم صدورهم وقلوبهم ، والله سبحانه يقول :

« ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا : آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ »

والله سبحانه يقول :

« إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها »

ومرة بعد مرة تصفعنا التجارب المرة ، ولكننا لانفيق . . مرة بعد مرة تظهر الجاسوسية علينا والخيانة لنا فى أعداء ديننا الذين ائتمناهم على أسرارنا . ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة تلبس أزياء مختلفة . ومرة بعد مرة تنفلت ألسنتهم فتنم عن أحقادهم التى لايذهب بها ود يبذله المسلمون ، ولا تغسلها سماحة تفيض بها نفوسهم . . ومع ذلك نعود فنأمن أعداء ديننا ونشاركهم أسرارنا ، ونفتح لهم قلوبنا . وتبلغ بنا المجاملة ان نجاملهم فى عقيدتنا ، وأن

نتزل فى سبيل إرضائهم عن شعائرنا . . ومن هنا يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر الله . ومن هنا نذل ونضعف ونستخذى . ومن هنا نلقى العنت الذى يسر أعداءنا ، ونلقى الخبال الذى يودونه لنا . .

وها هو ذا كتاب الله يدعونا دعوته الخالدة الباقية :

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا . ودوا ما عنتم . قدبدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر »

وهاهو ذا كتاب الله يعلمنا كيف نتقى كيدهم ، وندفع أذاهم ، وننجو من الشر الذى تكنه صدورهم ، ويفلت على ألسنتهم منه شواظ :

« وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا . إن الله بما يعملون محيط »

فهو الصبر والعزم والصمود أمام قوتهم إن كانوا أقوياء . وأمام مكرهم وكيدهم إن سلكوا طريق الوقيعة والخداع . إنه الصبر والتماسك لا الانهيار والتخاذل . ولا التنازل عن العقيدة كلها أو بعضها مرضاة لهم ، وكسبا لودهم الذى لاوجود له ، ولا يمكن أن تنطوى عليه صدورهم للأمة المسلمة فى مكان أو زمان . . ثم هو الصلة بالله وحده ، والخوف من الله وحده . هو تقوى الله التى تربط القلوب به وتوجهها إليه . وحين يتصل القلب بالله فإنه سيحقر كل قوة غير قوته ، وستشد هذه الرابطة من عزيمته فلا يستسلم من قريب ، ولا يخشى كيدا ولا يبالى عدوا ؛ ولا يتخلى عن عقيدته فى سبيل إرضاء المخالفين له فى العقيدة ؛ ولا يركن إليهم طمعا فى نصرهم — وما النصر إلا من عند الله — ولا اتقاء لشرهم « إن الله بما يعملون محيط » .

هذا هو الطريق . . العزيمة والتقوى . التماسك والارتباط بالله . وما استمسك المسلمون فى تاريخهم كله بعروة الله وحدها إلا عزوا وانتصروا ، ووقاهم الله كيد أعدائهم ، وجعل كلمة الله هى العليا . وما استمسك المسلمون فى تاريخهم كله بعروة أعدائهم ، واستمعوا إلى مشورتهم ، واتخذوا منهم بطانة وأصدقاء ومستشارين وخبراء . إلا كتب الله عليهم الهزيمة ، ومكن لأعدائهم فيهم ، وأذل رقابهم لهم ، وأذاقهم وبال أمرهم . . والتاريخ كله شاهد على أن كلمة الله خالدة ، وأن سنة الله لاتتخلف ؛ فمن عمى عن سنة الله المشهودة فى الأرض ، فلن ترى عيناه إلا آيات الذلة والانكسار .

« وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا، وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ، وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

« وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ؟ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ .

« وَلا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ . وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا . وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ ، وَعَصَيْتُم مِن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ، مِنكُم مَن يُرِيدُ الدُّنيَا وَمِنكُمْ مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ، فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِنْ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنكُمْ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَاهِلِيَّةِ، يَقُولُونَ: هَل لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ؟ قُلْ: إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ، يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا. قُلْ: لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ، وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَٱللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا، وَلَقَدْ عَفَا ٱللهُ عَنْهُمْ. إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى: لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا، لِيَجْعَلَ ٱللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ، وَٱللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللهِ تُحْشَرُونَ.

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ لِنتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ، فَاعْفُ عَنْهُمْ، وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ، إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ.

« إِن يَنصُرْكُمُ ٱللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِن بَعْدِهِ؟ وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ.

« وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ، وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

« أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ ٱللهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ ٱللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ؟ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ ٱللهِ، وَٱللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ.

« لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ : أَنَّىٰ هَـٰذَا ؟ قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللهِ ، وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ : تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَوِ ٱدْفَعُوا ، قَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا : لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا . قُلْ : فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

« وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ : إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ، وَقَالُوا : حَسْبُنَا ٱللهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللهِ ، وَٱللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » .

انتهى الدرس الماضى بتحذير الله للمؤمنين أن يتخذوا بطانة من دونهم لا يألونهم خبالا . ووعدهم بألا يمسهم من هؤلاء كيد إذا هم صبروا على كيدهم ، واتقوا الله فلم يخافوا سواه ، ولم يركنوا إلا إليه ، ولم يتخذوا من أعداء دينهم أولياء ، ولا أصدقاء .

وهنا يستمر السياق فى هذا الجو بتصوير غزوة أحد،وما وقع فيها من اضطراب فى صفوف المسلمين ، ومن أراجيف قبل المعركة وفى ثناياها .. والذى وقع فى غزوة أحد إنما هو نموذج

من أفاعيل المنافقين الذين كانوا مندسين فى صفوف المؤمنين ، حتى ميزهم الله بالمحنة ، وعزلهم بالشدة .. وهذا النموذج إنما هو تطبيق وتصديق لذلك التحذير .

والآن نحن أمام غزوة أحد ، وقد استغرق الدرس الذى بين يدينا نحو ثلاثة « أرباع » قرآنية .. وهو درس طويل أردنا أن يستوعب كل ما جاء عن هذه الغزوة وما لابسها . وهو يعرض نموذجا قرآنيا كاملا لطريقة القرآن فى عرض الأحداث . .

إن السياق القرآنى لايعرض الحادثة عرضا تاريخيامسلسلا بقصد التسجيل.إنما هو يعرضها للعبرة والتربية واستخلاص المعانى الكامنة وراء الحوادث ، ورسم سمات النفوس وخلجات القلوب ،وتصوير الجو الذى صاحبها ، والسنن الكونية التى تحكمها ، والمبادىء الإنسانية التى تحققها . . وبذلك تستحيل الحادثة محورا أو نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات والنتائج والاستدلالات . يبدأالسياقمنها ، ثم يستطرد حولها، ثم يعود إليها ، ثم يجول فى أعماق الضمائر وفى أغوار الحياة . ويكرر هذا مرة بعد مرة ، حتى ينتهى بالقصة إلى خاتمتها، وقد ضم جناحيه على حفل من المعانى والدلائل والآيات والتوجيهات ، لم تكن القصة إلا وسيلة إليها ، ونقطة ارتكاز تتجمع حوالها .

وهكذا سنجد غزوة أحد فى هذا السياق .

***

« وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم ، إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

إنه التذكير ، واستعادة الحادث بملابساته ليجسم هذه الذكرى :

« وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » .

وكان ذلك حين علم الرسول — صلى الله عليه وسلم — بمسيرة قريش إلى المدينة . فجلس يستشير أصحابه فى الخطة ، وكان بعضهم — وعلى رأسه عبد الله بن أبى — يرى أن يبقى المسلمون فى المدينة ، ويدعوا المشركين يهاجمونهم وهم فى قلب مدينتهم متحصنين بها ، متمكنين من مراكزهم فيها . بينما كان بعض الشباب المشتاق إلى لقاء الله ، وبخاصة من فاتتهم غزوة بدر ، وهم فى شوق إلى الجهاد ، يرون أن يخرج جيش المسلمين ليلتقى بجيوش المشركين خارج المدينة .

ولقد ألح هذا الفريق على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأظهر من الحماسة والتدافع حتى غلب رأيهم وظهر ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلبس لامته ودرعه .

وبينما الرسول فى داره يعد عدته ، أحس هؤلاء المتحمسون شيئاً من الندم ، أن يكونوا بتشددهم واندفاعهم قد حملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ على خطة لا تستريح إليها نفسه . حتى إذا خرج عليهم ، عرضوا عليه ما جال فى نفوسهم ، وفوضوا إليه الأمر ، إن شاء أقام وهم معه ، وإن شاء خرج فكانوا فى الطليعة .

وهنا يلقى الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ درسا من دروسه النبوية العالية .. إن للإنسان أن يتريث ويستشير ، ويقلب أوجه الرأى ماشاء . أما حين ينتهى من مرحلة الاستشارة والتفكير ، ثم يختار خطة ويعتزم ، فلا سبيل بعد ذلك إلى تردد ، ولا إلى إعادة الأخذ والرد . ولكن ليمض فيما اعتزم فالعودة إلى تقليب وجوه الرأى بعد هذا إنما هى ضعف وتردد ينتهيان إلى التأرجح الدائم الذى لا ينقطع .. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «ما ينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يرجع حتى يحكم الله له » ..

ثم غدا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيت عائشة فى ألف من أصحابه ، ولم يبعدوا حتى انفصل عبد الله بن أبى بثلث الجيش مغضبا أن الرسول لم يأخذ برأيه ، واستمع إلى الشباب من أهل المدينة ؛ وقال متهكما : « لو نعلم قتالا لا تبعناكم » فدل بهذا على أن قلبه لم يخلص للعقيدة ، وأن شخصه ما يزال يملأ قلبه ، ويطغى على العقيدة فى ذلك القلب ، الذى ينفسح إما لحب الذات وإما لحب الله .

وكادت طائفتان من الأوس والخزرج أن تضعفا بتأثير هذه الحركة من عبد الله بن أبى وجماعته . وليس أقتل لروح الجيش من مثل هـذه الحركات المريبة ، والمعركة على الأبواب . ولكن الله تولاهما ، فمضتا مع الرسول ، لم تستجيبا لهذا الضعف الطارىء بسبب فعلة المنافقين ! حتى بلغ جيش المسلمين إلى الشعب من جبل أحد . وأعد الرسول خطته المعروفة ، بجعل الرماة على الجبل ، كى لا يؤخذ المسلمون من ظهورهم ، وأمرهم ألا يبرحوا مكانهم هذا أيا كان مصير المعركة ، قال لهم الرسول : « انضحوا الخيل عنا ، ولا نؤتين من قبلكم ، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم » وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال : « لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال » .

إلى هذه الحوادث تشير الآية :

« وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال »

وما يكاد ينتهى من هذه الإشارة حتى يعقب عليها بأحد التعقيبات القرآنية . تلك التى تجعل الحادثة وسيلة لربط القلب الإنسانى بالله :

« والله سميع عليم » .. يسمع الحوار ويعلم النيات ، ويحيط بالموقف كله ومن فيه .

« إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » .

وما تكاد تنتهى الإشارة حتى يجئ التعقيب القرآنى :

« والله وليهما . وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

فمن مستلزمات الإيمان أن يتوجه المؤمنون إلى الله ، وأن يعتمدوا — وقد أعدوا ما فى طوقهم — عليه وحده . والله هو الولى والناصر والمعين .

* * *

هكذا يبدأ الحديث عن الغزوة التى لم ينتصر فيها المسلمون وقد كادوا . وهى قد بدأت بذلك التخاذل ، وبتغليب الأثرة الشخصية على العقيدة ، وبذلك الضعف الذى كاد يدرك طائفتين أخريين من المسلمين . ثم بالمخالفة عن الخطة العسكرية وعن أمر الرسول — كما سيجئ .

ولأن هذه الغزوة لم تنته بالنصر ، فإن السياق يبدؤها على هذا النحو ، وقبل أن يخطو خطوة أخرى فيها يذكر المؤمنين بموقعة أخرى ، وبمصير آخر — موقعة بدر الكبرى — لكى لا يلوح شبح الهزيمة لهم — ولو فى الذكرى — إلا وطائف النصر يلوح فى مخيلاتهم ويشد من عزيمتهم ، ويذكرهم بأسباب النصر التى أهملوها ، والتى لو تمسكوا بها لأصابوا فى الثانية ما أصابوا فى الأولى :

« ولقد نصركم الله ببدر — وأنتم أذلة — فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ؛ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم »

إن صورة النصر هنا هى التى يريد السياق أن يثيرها فى النفوس ، مع ملابساتها ومع

الأسباب التى كفلت هذا النصر أو صاحبته ، لتكون حاضرة قبل استعراض صورة الهزيمة الأخيرة وملابساتها وأسبابها كذلك .

ولقد تحقق النصر فى بدر ــ على قلة العدد وضعف العدة وذل المركز الذى كان فيه المسلمون قبل هذه الموقعة ، وهم إما لاجئون من أهل مكة مهاجرون ، وإما قلة من أهل المدينة يحيط بهم اليهود المتربصون .

لقد تحقق هذا النصر مع هذه الملابسة .. وقبل أن يقول : كيف تحقق ؟ يجىء التعقيب القرآنى المألوف :

« فاتقوا الله لعلكم تشكرون » ..

إن ذكرى النصر تثير النشوة والفخار .. فلتتوجه القلوب من فورها إلى الله خاشعة تختلج بمشاعر التقوى ، فتقودها هذه المشاعر الخاشعة إلى شكر الله على ذلك النصر ، لا إلى المباهاة بالنصر والفخر .. إنه الأدب النفسى الذى يأخذ القرآن به المسلمين دائماً فى مواقف الفتح والنصر ، ليهذب من شرة النفوس التى يزدهيها النصر والفتح فطرة وطبعاً . والله أعلم بهذه النفوس . فإذا استثار فى الضمائر مشاعر التقوى والشكر والتواضع مضى يستثير بقية صور المعركة وملابساتها الأخرى .. مضى يذكرهم تشجيع الرسول لهم وتثبيته لقلوبهم :

« إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين[1] »

وينص السياق بعد ذلك على أن قول الرسول هذا كان على سبيل البشارة لتطمئن القلوب به وتقوى . أما النصر فهو من عند الله ، وبمشيئة الله ــ أما التطمين والبشرى وما يحدثان فى القلوب من قوة وما يثيران فيها من ثبات وشجاعة .. أما هذا كله فليس إلا وسائل وملابسات . والنصر فى النهاية معقود بمشيئة الله التى تمنحه لمن يستحقه ويتوخاه :

« وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله »

أما كيف يشارك الملائكة فى المعركة ؟ فهذا يقتضى أن ندرك نحن من هم الملائكة . ولقد أسلفنا الحديث فى مناسبات شتى عن هذا الموضوع ، وانتهينا فيه إلى قاعدة تقوم على أن طبيعة

---

(١) لهم سيماء يعرفون بها ويتميزون .

العقل البشرى ليست مهيأة لإدراك ماهية هذه المخلوقات ، فهى بالتالى غير مهيأة لإدراك كيفية نشاطها وتأثيره فى الماديات .

فعلينا إذن أن نقف عند الإخبار الإلهى لانتعداه . دون أن ندخل عقولنا البشرية فى متاهة من الفروض والتصورات ، لايمسك بها تصورنا البشرى المحكوم بقوانين خاصة ، لاتدخل فى نطاقها تلك الفروض والتصورات .

والله عزيز قادر على أن يهب النصر لمن يشاء ، ويحطم القوى التى تواجهه مهما يكن مظهرها من القوة . حكيم يهب النصر لمن يستحقه ، ويحطم القوى التى تستحق التحطيم . وتتحقق بتحطيمها حكمة الله .

ثم يكشف عن بعض حكمة النصر بصفة عامة فى حروب المسلمين والكافرين :

« ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين — ليس لك من الأمر شىء — أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » .

إنها حكمة يريدها الله ويحققها . لذلك بادر باخراج إرادة الرسول ورغبته من المجال : « ليس لك من الأمر شىء » قبل أن ينتهى من بيان الأغراض التى يحققها النصر ، ومن أجلها يتم

« ليقطع طرفا من الذين كفروا » . .

فينقص من عددهم بالقتل أو ينقص من أرضهم بالفتح ، أو ينقص من أموالهم بالغنيمة .

« أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » . .

أى يصرفهم مهزومين أذلاء ، فيعودون خائبين مقهورين .

« أو يتوب عليهم » . .

فإن انتصار المسلمين قد يكون للكافرين عظة وعبرة ، فيقودهم إلى الإيمان والتسليم ، فيتوب الله عليهم من كفرهم ، ويختم لهم بالإسلام والهداية .

« أو يعذبهم . فإنهم ظالمون » ..

يعذبهم بنصرة المسلمين عليهم أو بأسرهم ، أو بموتهم على الكفر الذى ينتهى بهم إلى العذاب .. جزاء لهم فإنهم ظالمون . على معنى من معانى الظلم التى سبق إيضاحها عند أمثال هذا التعبير .

وعلى أية حال فهى حكمة يريدها الله . والأمر كله لله . وليس لبشر منه شىء ، حتى رسول الله .

لذلك يختم الموضوع بنص عام يتجاوز النصر والهزيمة ، ويتجاوز المؤمنين والـكافرين . ليشمل السماوات والأرض والناس أجمعين :

« ولله مافى السماوات ومافى الأرض ، يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، والله غفور رحيم »

وإذا كان الغفران والعذاب موكولين لمشيئة الله المطلقة ، فإن العمل والمحاولة موكولين لمشيئة الفرد . وقد وعد الله المؤمنين الثواب على العمل الصالح ، والغفران عند التوبة النصوح . كما أنذر الـكفار بالعقاب على كفرهم ، والمذنبين على ذنوبهم .. وترتيب الثواب على الإحسان ، والعقاب على الـكفران داخل فى مشيئة الله ، محقق لهذه المشيئة . فلا يقولن أحد : مادام الغفران والعذاب موكولين للمشيئة فعلام أحاول ، إن هذا لمخالف للإدراك الصحيح لمعنى المشيئة ، ومخالف لما أمر الله به ، من العمل والاستعداد وبذل الجهد والطاقة .

« والله غفور رحيم » ..

فغفرانه ورحمته أقرب وأعم من عقابه وعذابه . وإليهما ينتهى أمر الناس . فالرجاء فى عفو الله ورحمته أولى ، والأمل فى غفرانه ورضوانه أجدر . على أن يكون ذلك الرجاء دافعا إلى رحابه ، وذلك الأمل حاديا إلى بابه . ومن توجه إلى الله بقلب سليم ، ونية صادقة ، فتحت فى وجهه الأبواب . ورحمة الله لا خازن لها ولا حجاب .

***

وفى ظلال هذه الإيقاعات الشعورية ، التى جاءت استطرادا لحديث النصر والهزيمة .. فى ظلال هذه الإيقاعات ؛ وقبل أن يرتد السياق إلى المعركة وما كان فيها . يعرض طائفة من موجبات العذاب ، وطائفة من دواعى الرحمة ، وطرفا من طريق التوبة والمغفرة ، وصورا من النعيم ووسائل هذا النعيم :

إنه يعرض أكل الربا بوصفه موجبا من موجبات النار ، وتركه بوصفه من دواعى الفلاح .

ويعرض طاعة الله والرسول بوصفها سبيلا إلى الرحمة .

ويعرض هذه الطاعة مع الإنفاق فى السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس بوصفها سبباً من أسباب المغفرة وجنة عرضها السماوات والأرض .

ويعرض التوبة والاستغفار وعدم الإصرار على المعصية بوصفها من دواعى الغفران وجنة تجرى من تحتها الأنهار .

وقد قلنا فى مطلع هذا الدرس : إن استعادة ذكرى المعركة لم تكن إلا مناسبة لإيحاءات وتوجيهات . ليست القصة إلا محوراً لها ووسيلة إليها .. ومن ثم هذه الاستطرادات إلى بناء النفوس وتهذيبها وتوجيهها ، كلما تهيأ الظل الذى تعرض فيه تلك الإيحاءات والتوجيهات . فلنستعرضها واحدة واحدة فى هذا المجال :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التى أعدت للكافرين » .

ولقد سبق الحديث عن الربا فى الجزء الثالث من هذه الظلال ، من ناحية طبيعته وحكمة تحريمه فلا نكررها هنا (١) . ولكن نقف عند الأضعاف المضاعفة . فإن قوما يريدون فى هذا الزمان أن يتواروا خلف هذا النص ويتداروا به ، ليقولوا : إن المحرم هو الأضعاف المضاعفة ، أما التسعة فى المئة فليست أضعافاً مضاعفة ، وليست داخلة فى نطاق التحريم !

ونبدأ فنحسم القول بأن الأضعاف المضاعفة وصف لواقع ، لا شرط يتعلق به التحريم ؛ والنص الذى سبق فى سورة البقرة قاطع فى حرمة أصل الربا بلا تحديد : « وذروا ما بقى من الربا » أيا كان .

فإذا انتهينا من تقرير المبدأ فرغنا لهذا الوصف ، لنقول : إنه فى الحقيقة ليس وصفاً تاريخيا فقط للعمليات الربوية التى كانت واقعة فى الجزيرة ، والتى قصد إليها النهى هنا بالذات . إنما هو وصف ملازم للنظام الربوى ، أيا كان سعر الفائدة .

إن النظام الربوى معناه إقامة الاقتصاد كله على هذه القاعدة . ومعنى هذا أن العمليات الربوية ليست عمليات مفردة ولا بسيطة . فهى عمليات متكررة من ناحية ، ومركبة من ناحية أخرى . فهى تنشىء مع الزمن والتكرار والتركيب أضعافاً مضاعفة بلا جدال . والبديهيات الرياضية تثبت هذا الذى نقول .

إن النظام الربوى يحقق باستمرار هذا الوصف . فليس هو قاصرا على العمليات التى كانت متبعة فى جزيرة العرب ؛ إنما هو وصف ملازم لنظام الفائدة فى كل زمان .

---

(١) ص ٣٢ إلى ص ٣٧ من الجزء الثالث من ظلال القرآن .

والنص هنا يقرن ترك هذا النظام الآثم بتقوى الله ، ويقرنه كذلك بالفلاح . ويلوح بالنار التي أعدت للكافرين .

فأما تقوى الله فالأمر فيها ظاهر . فما يأكل الربا إنسان يخشى الله ، ويستشعر عدله ، ويقيم صلاته بالناس ومعاملاته على هذا الأساس . إن النظام الربوى نظام مادى فاجر ، لايعترف بالعنصر الأخلاقى الذى يقيم الإسلام نظامه كله عليه ؛ ولا يعترف بآصرة إنسانية تربط أفراد هذا المجتمع ؛ ولا يعترف بمعنى من معانى الرفق والرحمة بالعباد .. فتوجيه القلب هنا إلى تقوى الله عند مطالبته بترك الربا توجيه مفهوم يجىء فى خير أوان .

وكذلك الفلاح .. فهو ثمرة طبيعية للتقوى ــ ومن مقتضياتها ترك النظام الربوى المقيت ــ الفلاح فى الدنيا والآخرة : فلاح الفرد وفلاح الجماعة .. (ولقد سبق الحديث فى الجزء الثالث عن فعل الربا بالمجتمعات وويلاته البشعة التى ذاقتها البشرية مرات ومرات . فلنرجع إلى هذا المعنى هناك لندرك معنى الفلاح هنا واقترانه بترك نظام الربا والرجوع فى المعاملات إلى التقوى)

وأما التلويح بالنار ، والتعريض بالكفر .. فإن لهما معنى دقيقاً فى هذا المجال . إن النهى عن الربا كله قاطع جازم . فالتعريض بالكفر هنا والتلويح بالنار ، على أثر النهى عن أكل الربا ، وتفظيعه بأنه أضعاف مضاعفة ــ وهو وصف ملازم له كما أسلفنا ــ يشير إلى أن فى الربا روح الكفر وظله . وأن اتقاء النار التى أعدت للكافرين يقتضى اتقاء هذا الأكل الجارم الآثم للأضعاف المضاعفة فى الربا ، وهو أكل كما قلنا متحقق دائم .

« وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون »

وطاعة الله والرسول واجبة فى كل شىء . ولكن التقفية بها هنا على النهى عن أكل الربا ، تحمل معنى خاصاً فى هذا المجال ، فهى تحمل معنى التوكيد للنهى السابق ، توكيد الطاعة والامتثال لله فيه . عسى أن تقودهم الطاعة إلى الرحمة ، وتعصمهم من التهديد بالعذاب ، ومن النار التى أعدت للكافرين .

ولقد سبق فى سورة البقرة (١) أن رأينا السياق هناك يجمع بين الحديث عن الربا والحديث عن الصدقة ، بوصفهما الوجهين المتقابلين للعلاقات الاجتماعية فى الميدان الاقتصادى .

---

(١) الجزء الثالث من الظلال.

فهنا نجد شيئا من هذا الجمع السريع أيضا بلا تطويل . لأن الكلام عنهما وعن سواهما ليس إلا استطرادا فى إطار قصة أحد .

وبعد النهى عن أكل الربا أضعافا مضاعفة ، والتحذير من النار ، والدعوة إلى التقوى لعلها تعود إلى الرحمة .. بعد هذا يجئ الأمر بالمسارعة إلى المغفرة وإلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .. ثم يكون الوصف الأول للمتقين أنهم الذين ينفقون فى السراء والضراء ، وهم الفريق المقابل لمن يأكلون الربا أضعافا مضاعفة ، ثم تجئ بقية الأوصاف :

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين : الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس و الله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم . ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين »

والتعبير هنا يصور أداء هذه الطاعات فى صورة حسية . يصوره سباقا إلى هدف أو جائزة تنال .. « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » .. « وجنة » تجسم كذلك بالمساحة « عرضها السماوات والأرض » لتبرز فى الحس ، وتأخذ حيزها فى المخيلة . على طريقة التصوير الفنى فى القرآن .. « أعدت » هذه الجنة العريضة الفسيحة وهيئت « للمتقين » .. ثم يأخذ فى بيان صفات المتقين :

« الذين ينفقون فى السراء والضراء »

وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها ، المحبة للمال ، إحدى الشهوات التى زينت للناس . ما يدفعها إلى إنفاق المال هكذا بسخاء وتكرار « فى السراء والضراء » إلا دافع أقوى من شهوة المال .. دافع التقوى ، ذلك الشعور اللطيف العميق ، الذى تشف به الروح وتخلص من ثقلة الضرورة ، وأوهاق الشهوة ، وأغلال الحرص . وتنطلق من تلك القيود كلها فتجود بالمال فى سخاء وتكرار .

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس »

كذلك تعمل التقوى فى هذا الحقل الجديد بنفس البواعث ونفس المؤثرات . فالغيظ انفعال بشرى ، تصاحبه أو تلاحقه فورة فى الدم ، فهو إحدى دفعات التكوين البشرى وإحدى ضروراته . وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية المنبعثة من إشراق التقوى . وبتلك القوة الروحية المنبعثة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات .

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى . وهى وحدها لاتكفى . فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن ، فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة فائرة ، ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين .. وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغينة .. لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الحقد الكظيم فى نفوس المتقين .. إنها العفو . العفو السمح الجميل :

« والعافين عن الناس » . .

إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه ؛ وشواظ يلفح القلب ودخان .. فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب ، فهو الانطلاق من ذلك الوقر ، والرفرفة فى آفاق النور ، والبرد على القلب والسلام فى الضمير .

« والله يحب المحسنين »

والذين يجودون بالمال فى السراء والضراء محسنون . والذين يجودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون .. « والله يحب المحسنين » والحب هنا هو التعبير الودود الحانى ، المشرق المنير ، الذى يتناسق مع ذلك الجو اللطيف الوضىء الكريم .

ثم ننتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله — ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون »

يا لسماحة هذا الدين !

إن المتقين فى أعلى مرتبة من مراتب المؤمنين .. ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالإنسان تسلك فى عداد المتقين — وهم من هم — تسلك فى عدادهم : « الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها . ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها من رحمة الله .. ولا تجعلهم فى ذيل القافلة . قافلة المؤمنين .. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة . مرتبة المتقين . على شرط واحد . شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته .. أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم . وألا يصروا على مافعلوا ويتبجحوا بالمعصية فى غير حياء .

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشرى الذى تهبط به ثقلة الجسد أحيانا إلى درك الفاحشة ، وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوات الحيوان فى حمى الشهوة .. يدرك ضعفه

هـذا فلا يقسو عليه ، ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه فلا يوردها موارد الخير والفضيلة ، بل حين يرتكب الفاحشة .. المعصية الكبيرة .. وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفىء ، وأن نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف .. وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطىء المذنب بخير .. إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق .. فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر . فهو واصل في النهاية ما دامت الشعلة معه . ما دام يذكر الله ولا ينساه ، ويستغفره ولا يتبجح بمعصيته .

إنه لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة ، ولا يتركه منبوذا حائرا في التيه ، ولا يدعه مطرودا خائفا من المآب . إنه يطمعه في المغفرة ، ويدله على الطريق . ويأخذ بيده المرتعشة ، ويسند خطوته المتعثرة ، وينير له الطريق ، ليفىء إلى الحمى الآمن الوارف الظلال .

شىء واحد يتطلبه ،ألا يجف قلبه ، وتظلم روحه ، فينسى الله .. وما دام يذكر الله ؛ مادام في روحه ذلك المشعل الهادى ؛ وفى ضميره ذلك الهاتف الحادى ؛ وفى قلبه ذلك الندى البرود . فسيطلع النور في روحه من جديد ، وسيثوب إلى الحمى الآمن من جديد ، وستنبت بذرة الإيمان الهامدة من جديد .

إن طفلك الذى يخطىء ويعرف أن السوط لاسواه فى الدار ، سيروح آبقا شاردا لا يثوب إلى الدار أبدا . فأما إذا كان يعلم أن بجانب السوط يدا حانية تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب ، وحين يستغفر من الخطيئة . فإنه سيعود !

وهكذا يأخذ الإسلام ذلك المخلوق البشرى الضعيف فى لحظات ضعفه .. فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة ، وبجانب ثقلة الجسد رفرفة الروح . وبجانب النزوات الحيوانية أشواقا ربانية .. فهو يعطف عليه فى لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقى الصعود . ويربت عليه فى لحظة العثرة ليحلق به إلى الأفق من جديد . مادام هذا المخلوق لاينسى الله ، ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة [1] »

والإسلام بهذا لايدعو الى الترخص . إنما يقيل عثرة الضعف ، ويستثير فى النفس البشرية الرجاء . كما يستثير فيها الحياء . فالمغفرة من الله ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ـ تخجل ولا

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والبزار فى مسنده من حديث عثمان بن واقد . وفى سنده صحابى مجهول . لكن ابن كثير فى تفسيره صححه وقال : « حديث حسن ».

تطمع ، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار . فأما الذين يستهترون ويصرون ، فهم هنالك خارج الأسوار ، موصدة فى وجوههم الأسوار .

وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلا؛ والرحمة بهذه البشرية أن تكلف ما لا تستطيع . ويفتح أمامها باب الرجاء أبداً ، ويأخذ بيدها إلى أقصى ما لا تستطيع [١] .

* * *

بهذا ينتهى ذلك الاستطراد فى هذا الموضع ؛ ويرتد السياق إلى غزوة أحد وملابساتها .

لقد حدث فى هـذه الغزوة أن هزم المسلمون ، وأن أصيبوا فى أرواحهم وأبدانهم بأذى كثير . قتل منهم سبعون صحابيا جليلا ، وكسرت رباعية الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وشج وجهه ، وأصيب بالجراح الـكثيرون .

والقرآن الـكريم هنا يرد المسلمين إلى سنن الله فى الأرض . فهم ليسوا بدعا فيها ؛ وهذه الحياة متصلة الأواصر ، والنواميس التى تحكمها واحدة لا تتخلف ؛ والأمور لا تمضى جزافا ، إنما تتبع تلك النواميس الثابتـة . فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها ، تبينت لهم الأهداف وتكشفت لهم المصائر ، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذى تتبعه الأحداث ، واستشرفوا ما يخبئه لهم المستقبل على ضوء ما كان فى الماضى ، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين ، بدون أسباب النصر وقوانينه كما يفعل اليوم كثيرون !

والسنن التى يشير إليها السياق هنا ويوجه أبصارهم وبصائرهم إليها هى :

عاقبة المـكذبين على مدار التاريخ .. ومداولة الأيام بين الناس حتى لا تدوم على حال .. والابتلاء لتمحيص السرائر وامتحان مدى الصبر على الشدائد ، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للـكافرين ..

وفى خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال والمواساة فى الشدة ، والتأسية على القرح الذى لم يصبهم وحدهم ، إنما أصاب أعداءهم كذلك ، وهم أعلى من أعدائهم هدفا واعتقادا ، وأهدى منهم طريقا ونهجا ، والعاقبة بعد لهم والدائرة على الـكافرين :

« قد خلت من قبلـكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المـكذبين . هذا

---

(١) يراجع كتاب السلام العالمى والإسلام ، فصل : سلام الضمير .

بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين : إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » .

إن القرآن ليربط ماضى البشرية بحاضرها ، وحاضرها بماضيها . . وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم، ولم تكن معارفهم — قبل القرآن — لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة . لولا هذا القرآن الذى أنشأهم به الله نشأة أخرى ، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا . .

إن النظام القبلى الذى كانوا يعيشون فى ظله ، ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة ، فضلا على الربط بين سكان هذه الأرض؛ فضلا على الربط بين السنن التى تجرى وفقها الحياة جميعا . . فها هو ذا القرآن ينقلهم من عزلة القبيلة ، وارتجال الفكرة ، إلى رابطه البشرية واطراد السنة . وهى نقلة بعيدة ، لم تنبع من عوامل البيئة ، إنما حملتها إليهم هذه العقيدة ، بل حملتهم إليها ، وارتقت بهم إلى مستواها فى نصف جيل . على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير إلا بعد قرون وقرون .

« قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

أجل . . هذا بيان للناس . للناس كافة . فهو نقلة بشرية بعيدة ما كانوا ببالغيها لولا هذا البيان الهادى ، الذى لا يهتدى به ولا يتعظ إلا الذين تفتحت أرواحهم ، وأرهفت مداركهم ، بذلك الشعور العميق الهادى المنير : شعور التقوى فى نفوس المتقين .

قد خلت من قبلكم سنن . . وهى هى التى تحكم الحياة . وهى هى التى قررتها المشيئة العليا . فما تم منها فى غير زمانكم فسيتم فى زمانكم ، وما انطبق منها على مثل حالكم فهو كذلك سينطبق على حالكم . . فسيروا فى الأرض . . فالأرض كلها وحدة ، والأرض كلها مسرح للبشرية المتحدة المنشأ والمصير . سيروا فيها فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . . وهى عاقبة تشهد بها آثارهم فى هذه الأرض ، وسيرهم التى يتناقلها خلفهم هناك . . ولقد ذكر القرآن الكريم كثيرا منها فى مواضع متفرقة ؛ بعضها حدد مكانه وزمانه وأشخاصه، وبعضها أشار إليه بدون تفصيل . .

وهنا يشير هذه الإشارة المجملة لأننا فى معرض سنن مجملة وقضية مجملة .. وماجرى للمكذبين بالأمس سيجرى مثله للمكذبين اليوم . فلتطمئنوا إذن إلى العاقبة وأنتم تعرفون المصير :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون . إن كنتم مؤمنين » .

وهكذا يمهد لهذا التوجيه بمصائر المكذبين من قبل ، وبتقرير أن سنة الله لا تتخلف فى أمثالهم من المكذبين الذين يواجهون الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومن معه من المجاهدين.

لا تهنوا ــ من الوهن والضعف ــ ولا تحزنوا ــ لما أصابكم ولما فاتكم ــ وأنتم الأعلون .. عقيدتكم أعلى من عقيدتهم ، فأنتم تسجدون لله وهم يسجدون لشىء من خلقه أو لبعض من خلقه . ووجهتكم فى الأرض أعلى من واجبهم . فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها ، الهداة لهذه البشرية كلها ، وهم شاردون عن الهدى ، ضالون عن الطريق . ومكانكم فى الأرض أعلى من مكانهم ، فلكم وراثة الأرض التى وعدكم الله ، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون .. فإن كنتم مؤمنين بهذا كله فأنتم الأعلون . وإن كنتم مؤمنين بهذا كله فلا تهنوا إذن ولا تحزنوا ، فإنما هى سنة من سنن الله أن تصابوا وتصيبوا ، على أن تكون لكم العقبى بعد الجهاد الطويل:

« إن يمسسكم قرح [1] فقد مس القوم قرح مثله » .

إما إشارة إلى غزوة بدر ، وقد مس القرح فيها قريشا وسلم المسلمون . وإما إشارة إلى مطلع غزوة أحد هذه. وقد انتصر فيها المسلمون أول الأمر حتى هزم المشركون، وتابعهم المسلمون يضربون أقفيتهم ، لولا أن الرماة خرجوا على أمر الرسول واختلفوا فيما بينهم ، فأصاب المسلمين ما أصابهم فى نهاية المعركة ، جزاء وفاقا لهذا الاختلاف وذلك الخروج ، وتحقيقا لسنة من سنن الله التى لا تتخلف . إذ كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشئين من الطمع فى الغنيمة . والله قد كتب النصر لمن يجاهدون فى سبيله ، لا ينظرون إلى شىء من عرض هذه الدنيا من الزهيد أو الثمين ، وتحقيقا كذلك لسنة أخرى من سنن الله فى الأرض : مداولة الأيام بين الناس فتكون لهؤلاء يوما ، ولأولئك يوما . وبذلك يتبين المؤمنون .

« وتلك الأيام نداولها بين الناس ؛ وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

إن الشدة بعد الرخاء ، والرخاء بعد الشدة ، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس ، فيتبين المؤمنون ويمتازون من المنافقين المستورين . والله يعلم هؤلاء وهؤلاء ، ولكن انكشافهم

(١) جراح وآلام .

يجعل هذا العلم متعلقا بأعمالهم بعد أن كان متعلقا بنواياهم . والإسلام يعتبر العمل دائما ويحاسب عليه ، فهو يجرى هنا على قانونه .

ومداولة الأيام ، وتوالى الشدة والرخاء ، وسيلة عملية لا تخطىء ، ومحك صادق لا يظلم . والرخاء فى هذا كالشدة . فكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ، ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل ؛ والنفس المؤمنة حقا ، تصبر للضراء ولا تستخفها السراء ؛ وتتجه لله فى الحالين، وبهذا تستحق صفة الإيمان ، باتجاهها إلى الله فى جميع الأحوال ، ويقينها أن ما أصابها من خير أوشر فبإذن الله .

« ويتخذ منكم شهداء » ..

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق .. إن الشهداء لمختارون. يختارهم الله من بين المجاهدين ، ويتخذهم له ــ سبحانه ــ ويجعلهم كذلك شهداء على الناس . فما هى رزية ولا مصيبة أن يستشهد من يستشهد ، إنما هو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص .. إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ليكونوا له ، وليخلصوا لجواره.. وهكذا أدرك المجاهدون فى سبيل الله هذا المعنى، فكان الاستشهاد فى حسهم نعمة يتسابقون إليها ؛ غير كارهين للحياة ، ولكن متطلعين لما هو خير من الدنيا وما فيها . . لقاؤهم لله ، واختصاصه بهم فى علاه .

ولما كانت مداولة الأيام ، لمعرفة المؤمنين وكشف المنافقين ، وترتيب الجزاء على ما يكشف عنه الابتلاء . . لما كان هذا كله عدلا فقد جاء التعقيب مناسباً لهذا المعنى :

« والله لا يحب الظالمين »

ومن ثم فهو لا يظلم أحدا ، ومن عدله المطلق أن يرتب الجزاء على الأعمال الظاهرة ، ولا يكتفى بالنية المضمرة ، ولا يأخذ عباده بها وحدها ، وهو أعلم بحقيقتهم وبما سيكون منهم قبل أن يكون .

ثم يستمر السياق بعد تقرير هذه الحقيقة يكشف عن حكمة الابتلاء .

« وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين »

والتمحيص درجة تجىء بعد العلم . فإنها عملية فرز للمؤمنين وتمييز ، ليكونوا ظاهرين بارزين معزولين عن الكافرين ، الذين كانوا ينافقون ويخفون حقيقتهم . فالآن يتميز الناس إلى فريقين اثنين ظاهرين : المؤمنين وقد خلصت قلوبهم لله ، والكافرين وهؤلاء يمحقهم الله ،

تحقيقا لسنته فى المكذبين . حتى إذا تحققت هذه السنة كان واضحا أن الذين حل بهم المحق والهلاك هم الكافرون بلا شك فى حقيقتهم ، والذين كتب لهم النصر والبقاء هم المؤمنون بلا شبهة فيهم . وسجلت الأرض أن سنة الله جارية كما عهدها الناس فى جميع القرون .

ثم تأتى خاتمة هذا الاستعراض للسنن الباقية . تجىء فى صورة استفهام مفصح عن السنة الأخيرة : أن لابد لحملة كل دعوة من الجهاد ومن الصبر على تكاليف هذا الجهاد وتضحياته . وأن لابد من تمحيص دعواهم فى الاستعداد للتضحية بتعريضهم للتضحية . فالنصر لايأتى رخيصا ولاهينا ، والجهاد ليس دعاوى وليس كلاما . وما يستحق النصر إلا الذين يؤدون ثمنه ، فيبرهنون على أنهم أهل له ، وأهل للدعوة التى يحملونها .

ولقد كان الله قادرا على أن يمنح النصر لنبيه ولدينه منذ أول لحظة . ولكن الذين يتلقون النصر رخيصا يبيعونه كذلك رخيصا . والذين لايصمدون للابتلاء ولايصبرون للشدة لايصلحون حملة للدعوة ولا حماة لها حين تتعرض بعد ذلك للاضطهاد .

وكل دعوة جديدة لابد أن تجد معارضين ومضادين . فإذا لم يكن أصحابها مؤمنين بها إلى الحد الذى يضحون فيه بأنفسهم ولا يضحون بها ، لم يكونوا أهلا للنصر ، لأنهم ليسوا أهلا للثبات عليها والاستمرار .

فإذا داهمتهم الشدة فصبروا ، وأوذوا فى أعز شىء لديهم فصمدوا . وبذلوا كل ما فى طوقهم من جهد ، جاءهم النصر من عند الله عن استحقاق ، وجاءهم الجزاء على إيمانهم وصبرهم وجهادهم كذلك عن استحقاق :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون »

وكنتم تشتاقون إلى القتال والجهاد ، وترغبون فى التضحية والاستشهاد . فقد رأيتموه وأنتم تنظرون . لتعرفوا حقيقة ما تمنيتم ، وتروا مقدار صدقكم فى أنفسكم . وتختبروا مدى قدرتكم . فلا يكون قولكم بعدئذ إلا بمقدار ماتطيقون . ولتزنوا كل لفظ وكل دعوى بميزان طاقتكم على الاحتمال . . وإنها لتربية عالية للمؤمنين . .

***

ثم يمضى السياق شوطا آخر فى تربية نفوس المسلمين على احتمال الشدائد ، وتثبيتها على الإيمان أيا كانت النوائب ، حتى لو بلغت النائبة أن تكون فى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيهم وقائدهم . مشيرا إلى شىء مما حدث منهم فى ساحة المعركة إشارة تأنيب على الجزع ؛ وتأكيد لتوقيت الأجل ؛ وتخيير بين جزاء الدنيا وجزاء الآخرة ؛ وتمثيل بمواقف أسلافهم من المؤمنين بالرسل قبلهم ممن صبروا فى الجهاد لم يصبهم وهن ، فاستحقوا الجزاء الأوفى فى الدنيا والآخرة جميعا :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين . وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين . وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ؛ وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين »

إن الآية الأولى هنا تشير إلى واقعة حدثت فى غزوة أحد . ذلك حين انكشف ظهر المسلمين بعد أن ترك الرماة أماكنهم من الجبل ، فركبه المشركون ، وأوقعوا بالمسلمين ، وكسرت رباعية الرسول صلى الله عليه وسلم . وشج وجهه ، ونزفت جراحه ؛ حينئذ نادى ابن قميئة من المشركين : إن محمدا قد قتل .. وكان لهذه الصيحة وقعها الشديد على المسلمين ، فانقلب الكثيرون منهم عائدين إلى المدينة منهزمين ، لولا أن ثبت الرسول صلى الله عليه وسلم فى قلة من الرجال ؛ وجعل يناديهم وهم منقلبون ، حتى فاءوا إليه ، وثبت الله قلوبهم ، وصرف المشركين عنهم كما سيجىء .

وهنا يردهم القرآن الكريم إلى الحقيقة التى أذهلتهم الأحداث عنها .. إن محمداً ليس إلا رسولا من عند الله ليبلغهم ما كلفه الله . والله باق لا يموت . أما محمد فله أجل محدود ، ثم يموت كما ماتت الرسل قبله . والدين باق لأنه من عند الله الذى لا يموت . وما ينبغى أن يرتدوا عن هذا الدين إذا فارقهم محمد أو ينقلبوا على أعقابهم . ومن ينقلب على عقبيه فهو الخاسر ، الذى لم يعرف نعمة الإيمان ولم يشكر الله عليها . ومن عرف هذه النعمة فشكر واهبها فسيجزيه الله على شكره بالحسنى :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين »

إن الإسلام هنا يسير على منهجه فى تجريد العقيدة وإخلاصها لله ، وعدم ربطها بشخص من البشر ، حتى شخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو من هو منزلة عند الله .

إن البشر إلى فناء ، والعقيدة إلى بقاء ، لأنها مرتبطة بالله سبحانه ، فهى باقية ماشاء الله لها البقاء . والمسلم الذى يحب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كان صحابته يحبونه الحب الذى لم تعرف له البشرية نظيرا . الحب الذى يفدونه معه بحياتهم أن تشوكه شوكة ؛ ومايزال الكثيرون من أمته فى كل زمان وفى كل مكان يحبونه ذلك الحب العجيب بكل كيانهم ، وبكل مشاعرهم ، حتى ليأخذهم الوجد من ذكراه . . هذا المسلم الذى يحب محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الحب ، يجب أن يفرق بين شخص الرسول الكريم والعقيدة التى أبلغها وتركها للناس بعده ، باقية بعد لقائه لله سبحانه ، ممتدة لاتنقطع إلا أن يشاء الله .

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل »

وشأنه شأن هؤلاء الرسل . حياة محدودة بأجل . وموت ينتظر كل البشر .

« أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ »

سؤال فيه استنكار لما كان منهم ، وفيه توجيه إلى وجوب التفرقة بين حياة الرسول وحياة العقيدة . وفى التعبير تصوير حسى للارتداد يزيده وضوحا : « انقلبتم على أعقابكم » فهذه الحركة الحسية فى الانقلاب تجسم المعنى كأنه منظر مشهود . إذ المقصود هنا ليس حركة الارتداد الحسية بالهزيمة فى المعركة ، ولكن حركة الارتداد النفسية التى صاحبتها حينما نادى مناد : أن محمدا قد مات . فأحس بعض المسلمين أن لاجدوى إذن فى قتال المشركين ، وموت محمد سيهدم هذا الدين ! فهذه الحركة النفسية يجسمها التعبير هنا ، فيصورها حركة ارتداد على الأعقاب .

« ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا »

فإنما هو الخاسر ، الذى يؤذى نفسه ، فيختار الدنيّة ، ويدع العليّة ، ويتنكب طريق الرشاد . وانقلابه لن يضر الله . فالله غنى عن الناس وعن إيمانهم ، ولكنه ـ رحمة منه بالعباد ـ يجزى الذين يعرفون نعمة الإيمان ، ويقدرونها ، فيشكرون الله على هدايتهم إليها . يجزيهم بالخير على إيمانهم ، ولو أن كفرانهم لايضره شيئا .

ثم يلمس السياق مكمن الخوف من الموت فى النفس البشرية لمسة موحية ، تطرد ذلك

الخوف ، وتبعد عوامل الفزع والجزع . . إن لكل نفس كتابا مؤجلا ، ولن تموت حتى تستوفى الأجل المكتوب . فالخوف والحرص لا يطيلان أجلا ؛ والشجاعة والجهاد لا يقصران عمرا :

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا »

فلا كان الجبن ولا نامت أعين الجبناء ، والأجل مكتوب لاينقص منه يوم ولا يزاد .

وإذا كان العمر مكتوباً والأجل مرسوماً ، فلينظر الإنسان : أيريد أن يقعد عن تكاليف الإيمان ، وأن يحصر همه كله فى هذه الأرض ، وأن يعيش لهذه الدنيا وحدها . أم يريد أن يتطلع إلى أفق أعلى ، وأن يعمل للآخرة فى هذه الدنيا ، وأن يرجوها فيها ويؤثره على لذائذ الأرض وجزائها :

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها » .

وشتان بين ثواب وثواب ، وشتان بين حياة وحياة .. إن الذى يعيش لهذه الأرض وحدها ليحيا حياة الديدان والدواب والأنعام . وإن الذى يتطلع إلى أفق أعلى ليحيا حياة الإنسان الذى كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق .

« وسنجزى الشاكرين »

الذين يدركون نعمة التكريم الإلهى للإنسان ، فيرتفعون عن مدارج الحيوان ، ويشكرون الله على تلك النعمة ، فينهضون بتبعات الإيمان .

ثم يضرب الله للمسلمين مثلا من المؤمنين قبلهم ، الذين صدقوا فى إيمانهم ، وقاتلوا مع أنبيائهم ، فصمدوا للمحنة ، ولم يجزعوا عند الابتلاء ، وتأدبوا — وهم مقدمون على الموت — بأدب المؤمنين فى هذا المقام . مقام الجهاد . فلم يزيدوا على أن يستغفروا الله من ذنوبهم ، وأن يجسموا أخطاءهم فيعدوها إسرافا فى أمرهم ، وأن يطلبوا من الله الثبات والنصر . . وبذلك نالوا الثواب فى الدارين ، جزاء إحسانهم فى الدعاء ، وإحسانهم فى العمل . . وكانوا مثلا للمؤمنين يضربه الله للمسلمين :

« وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا . والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفرلنا ذنوبنا ، وإسرافنا

فى أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الـكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين »

لقد كانت الهزيمة فى غزوة أحد هى أول هزيمة تصدم المسلمين ؛ الذين نصرهم الله ببدر وهم قليل ؛ فـكأنما وقر فى نفوسهم أن النصر فى كل موقعة هو الأمر الطبيعى الذى لايتخلف ، أيا كانت الأحوال والظروف . فلما أن صدمتهم أحد فوجئوا بالابتلاء كأنهم لاينتظرونه . وكان هذا الجزع من الهول الذى لم يثبت له إلا القليلون .

لهذا طال الحديث حول هذه الواقعة فى القرآن الـكريم ؛ واستطرد السياق هنا وهناك يأخذ المسلمين بالتأسية تارة ، وبالتأنيب تارة ، وبالمثل تارة . . كل ذلك تربية لنفوسهم وإعدادا ؛ فالطريق أمامهم طويل ، والتجارب أمامهم شاقة ؛ والتكاليف عليهم باهظة ؛ والأمر الذى يندبون له عظيم .

والمثل الذى يضربه لهم الله هنا مثل عام ، لايحدد فيه نبيا ، ولا يحدد فيه قوما . فالمراد أن يعلموا أن الصفة اللازمة للمؤمنين حقا فى كل عهد هى تلك الصفة التى يعرضها السياق . وأنها متواترة مطردة فى السابقين :

« وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير . فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استـكانوا »

كم من نبى قاتل معه أبرار أتقياء كثيرون فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والـكرب والشدة والقتل والجراح ؛ وماضعفت قواهم عن الاستمرار فى الـكفاح ، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء . . وهذا هو اللائق بالمؤمن التقى البار ، الذى ينافح عن عقيدة ، ويكافح فى سبيل الله .

« والله يحب الصابرين »

الذين لا تضعف نفوسهم ، ولا تتضعضع قواهم ، ولا تلين عزائمهم ، ولا يستكينون أو يستسلمون للشدائد والأعداء .

وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرية لهؤلاء الربيين فى موقفهم من الشدة والابتلاء . فهو يمضى بعدها يرسم الصورة الباطنية لنفوسهم ومشاعرهم ، وأدبهم فى حق الله ، وهم

يواجهون الهول الذى يذهل النفوس ، ويقيدها بالخطر الواقع لاتتعداه ؛ ولـكنه لايذهل هذه النفوس المختارة عن التوجه إلى الله . . لاتطلب النصر أول ماتطلب ، وهو مايتبادر عادة إلى النفوس . . ولـكن لتطلب العفو والمغفرة ، ولتعترف بالذنب والخطيئة ، قبل أن تطلب الثبات والنصر فى القتال :

« وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الـكافرين » .

إنهم لم يطلبوا ثوابا ولاجزاء ولانعمة ولاثراء . لم يطلبوا ثواب الدنيا ولاثواب الآخرة . . إنهم ينهضون بتكاليف الإيمان فى أدب وخشية وتقوى . . إنهم لايرجون إلا غفران الذنوب ، وتثبيت الأقدام ، والنصر على القوم الـكافرين . فحتى النصر لايطلبونه لأنفسهم ، إنما يطلبونه هزيمة للـكفر وعقوبة للـكافرين .

هؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئا ، أعطاهم الله من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا ، وخير ما يتمناه طلاب الآخرة مجتمعين :

« فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة »

لقد أحسنوا الأدب ، وأحسنوا العمل :

« والله يحب المحسنين »

* * *

ولقد كانت هزيمة المسلمين الجزئية فى أحد ، مجالا لدسائس الـكفار والمنافقين فى المدينة ، ممن انتهزوا هذه الفرصة ، ليثبطوا من عزائم المسلمين ، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد ، ويصوروا لهم مخاوف القتال وعواقب الجهاد . . لذلك حذر الله الذين آمنوا هذه الفتنة ، وخوفهم عاقبة الاستماع للدسيسة ؛ وصور لهم النهاية البائسة لهذا الاستماع ، وهى الـكفر والخسران ، وشدد من عزائمهم بتذكيرهم أن الله هو مولاهم وناصرهم ، وهو القوى الذى لايخذل أولياءه :

« ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم ، وهو خير الناصرين »

وهى قاعدة لاتختص بزمانها ولا مناسبتها ؛ بل تمتد فى الزمان والمكان مادام الإنسان . إن صاحب العقيدة الذى لاتعصمه عقيدته من طاعة الكافرين ، والاستماع إلى مشورتهم والثقة فيهم ، ليتنازل عن عقيدته منذ الخطوة الأولى . إنها الهزيمة الروحية أن يركن صاحب العقيدة إلى أعداء عقيدته . الهزيمة بادئ ذى بدء ، فلا عاصم له من الهزيمة فى النهاية ، والارتداد على عقبيه إلى الكفر ، دون أن يحس أنه فى طريقه إلى هذا المصير .

إن المؤمن الحق يجد فى عقيدته غناء عن رأى أعدائه ، وفى هديها غنى عن مشورتهم . والمسلم على وجه خاص يجد فى عقيدته من السعة والدقة والشمول مالايحوجه إلى رأى أعدائه ، ومايغنيه عن مشورتهم فى كل شؤون الحياة . والدرس الذى ألقاه القرآن الكريم على أوائل المسلمين مايزال قائما للتابعين وتابعى التابعين إلى يوم الدين .

ومن يطلب العزة والنصر على هدى من عقيدته ، وعلى ثقة بإلهه . فالله مولاه والله ناصره « وهو خير الناصرين » .

ثم يمضى السياق يثبت قلوب المسلمين ، ويبشرهم بخذلان أعدائهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم؛ ويصرح بسبب الخذلان . فهو إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانا ،واعتمادهم على آلهة لم يمنحها الله قوة ، ولم يهبها سلطة ، ولم يضع فى فكرتها ما يستحق التمكين .

والتعبير : «ما لم ينزل به سلطانا» ذو معنى عميق . وهو يصادفنا مكررا فى القرآن الكريم، فلنقل عنه كلمة هنا ، تفيد فى كل موضع على وجه الإجمال :

إن أية فكرة ، أو عقيدة ، أو اتجاه ، أو عمل . . إنما تحيا وتتحقق وتؤثر بمقدار ما تحمل من قوة كامنة . هذه القوة تتوقف على مقدار ما فيها من الحق ، أى بمقدار ما فيها من التقاء مع سنن الكون التى أرادها الله لهذا الكون . ومن ثم فالله ــ خالق هذه السنن ــ هو الذى يمنح الفكرة أو العقيدة ، أو الاتجاه أو العمل تلك القوة ؛ ويمنحها ذلك السلطان، الذى تنفذ به وتتحقق وتؤثر فى محيط الحياة . يمنحها القوة والسلطان بمقدار ما فيها من اتفاق مع السنن الكونية التى قررها الله .

وهنا فى هذا المثال ، نجد تلك الآلهة التى يشركون بها . . ماذا تحمل فكرتها من قوة ؟ أو بتعبير آخر ما مقدار اتفاقها مع سنن الله الكونية ؟

إن الله الواحد ، خلق هذا الكون ، لينتسب إلى الله الواحد ، وليخضع لمشيئته الواحدة..

فكل فكرة تخرج على هذه السنة . سنة التوحيد . هى فكرة زائفة ، مناقضة لسنة الله فى الكون . ومن ثم فهى لا تحمل قوة ، ولا يصاحبها سلطان . أى لا تملك أن تؤثر فى مجرى الحياة ؛ بل لا تملك حق الحياة .

وما دام أولئك الكفار يعتمدون على هذه الآلهة التى لم ينزل الله بها سلطانا ولم يمنحها قوة ، فبهذا السبب سيلقى الله فى قلوبهم الرعب ويخذلهم أمام المؤمنين ، لأن لهؤلاء عقيدة ذات سلطان ، وذات قوة ، لاتفاقها مع سنة الله ، واتساقها مع مشيئته :

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » .

ذلك فى الدنيا . أما فى الآخرة فهناك المصير المحزن البائس الذى يليق بالظالمين .

« ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ! » .

ولما كان هذا وعدا موكولا إلى المستقبل . فإن الله سبحانه لا يكلهم إليه وحده وهم فى جو الهزيمة ؛ إنما يردهم إلى مصداق هذا الوعد فى الماضى . فى غزوة أحد نفسها . فلقد كان لهم النصر فى أوائلها ؛ ولقد استحر القتل فى المشركين حتى ولوا الأدبار ، وتركوا الغنائم . ولم ينقلب النصر هزيمة للمسلمين إلا حين ضعفت نفوس الرماة أمام إغراء الغنائم ؛ وتنازعوا فيما بينهم ؛ وخالفوا عن أمر رسولهم وقائدهم .. وهنا يستطرد السياق فيصور لهم حالهم فى الهزيمة . لأن فى تصوير الهزيمة هنا بعد النصر عبرة ، تهز وجدانهم ، وتثير ندمهم ، وتردهم إلى السنة المثلى فى طاعة الرسول ، وفى مقاومة الضعف النفسى ، وفى الاتحاد والتماسك ؛ إذ يرون أسباب النصر وأسباب الهزيمة مجسمة فى صور ووقائع وأحداث : وبذلك يعود السياق إلى قصة المعركة من جديد :

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم [1] بإذنه . حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين . إذا تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم ؛ فأثابكم غما بغم لكى لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم . والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ؛ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ قل : إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا . قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ؛ وليبتلى

---

(١) تستأصلونهم بالقتل .

الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم . والله عليم بذات الصدور . إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم » .

إن التعبير هنا ليرسم مشهدا كاملا لمسرح المعركة ، ولجو الهزيمة . مشهدا لا يترك حركة فى الميدان ولا خاطرا فى النفس ، ولا سمة على الوجوه إلا ويسجلها . . وكأنما العبارات شريط مصور يمر بالبصر ، ويحمل فى كل لحظة حركة جديدة ، نابضة . وبخاصة حين يصور حركة الإصعاد والهروب فى دهش وذعرواضطراب ؛ ودعاء الرسول للمنهزمين المرتدين عن الميدان؛ يصحب ذلك حركة النفوس وما يدور فيها من خوالج وخواطر ومطامع وانفعالات .

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه » .

وكان ذلك فى مطالع المعركة ، حيث بدأ المسلمون يقتلون المشركين ويخمدون حسهم قبل أن يلهيهم الطمع فى الغنيمة عن الطاعة للقائد .

« حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » .

وهو تقرير لحال الرماة ، وقد ضعف فريق منهم عن صد إغراء الطمع فى الغنائم ؛ ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله ، وانتهى الأمر إلى العصيان ، بعد ما شاهدوا بأعينهم طلائع النصر .. منقسمين إلى فريقين : فريق يريد غنيمة الدنيا ، وفريق يريد ثواب الآخرة .. وما كان لجيش ينقسم على نفسه فى ميدان المعركة هكذا أن يظل فى انتصاره . وبخاصة أن الخلاف كان على عرض من أعراض الدنيا ، والمعركة معركة عقيدة أولا وأخيرا .

« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » .

أى صرف قوتكم وبأسكم عن المشركين ؛ فانهزمتم وفررتم ، ليكون فى هذا ابتلاء لكم وامتحان ، بما أصابكم منهم من الكر عليكم ، والإيقاع بكم ..

« ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » .

عفا عما وقع منكم من ضعف أمام شهواتكم ، وعصيان لأمر رسولكم ، وخروج على النظام الذى وضعه لكم .. ثم ما وقع كذلك من فرار وانقلاب عن ميدان المعركة حين قيل:

إن محمداً قد مات ، ومن يأس من جدوى المقاومة بعد محمد .. وكلها زلات تحسب على المؤمنين . .

عفا الله عنكم ، فضلا منه ومنة وتجاوزا عن ضعفكم البشرى الذى لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار .. « والله ذو فضل على المؤمنين »

ثم تأتى حلقة من المشهد الحافل بالحركة .

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم »

والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية فى ألفاظ قلائل . . فهم مصعدون هربا ، فى اضطراب ورعب ودهش ، لايلتفت أحد إلى أحد من الهول ، ولايجيب أحد داعى أحد من الذعر . والرسول يدعوهم وهم مصعدون . . إنه مشهد كامل فى ألفاظ قلائل .

وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذى تركوه فى نفس الرسول بفرارهم ، غما يملأ صدورهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم رسولهم يصيبه ما أصابه ، وهو ثابت دونهم ، وهم عنه فارون . . ذلك كى يتعلموا ألا يحفلوا بشىء يفوتهم ، ولا يحزنوا لأذى يصيبهم . فهذه التجربة التى مرت بهم ، وذلك الندم الذى ساور نفوسهم ، وذلك الغم الذى استشعروه فيما فعلوه . . كل أولئك سيصغر فى نفوسهم كل مايفوتهم من عرض ، وكل مايصيبهم من مشقة ؛ ويجعلهم أدق تقديرا للأمور كلها ، خيرها وشرها ، بعد هذه التجربة الأليمة :

« لكى لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم » .

والله المطلع على الخفايا ، يعلم حقيقة أعمالكم ودوافعكم وتأثراتكم :

« والله خبير بما تعملون » .

ولقد أعقب هول المعركة وذعرها ، وهرجها ومرجها سكون كالذى يعقب العاصفة . سكون فى نفوس المؤمنين الذين ندموا وأحسوا خطأهم وتابوا إلى ربهم . وشملهم الله بنعاس لطيف يستبسلمون إليه مطمئنين .

والتعبير عن هذه الظاهرة يشف ويرق وينعم حتى ليصور بجرسه وظله ذلك الجو الساكن الوديع :

« ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم » .

هكذا « أمنة » .. « نعاسا » .. « يغشى » وكلها تلقى ستارا رقيقا شفيفا على الأعضاء والخوالج والعيون ، وترسم ذلك الجو الآمن الذى أنزله الله على المؤمنين .

أما ذوو الإيمان المزعزع ، الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم ، والذين لم يتخلصوا من تصورات الجاهلية ، فهؤلاء ما زالوا فى قلق وفى فزع ، يحسون أنهم مضيعون ، لا يملكون لأنفسهم شيئا ، إنما هم لقى مهمل ، بدليل أن القتل قد نال بعضهم دون مشيئتهم ، وقد دفعوا دفعا إلى هذا البلاء الذى لا إرادة لهم فيه :

« وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ » .

وذلك شعور من لا يربط نفسه بعقيدة يعرف على ضوئها طريقه ، ويقدر من الحياة موقفه ؛ وتصور من لا تربطه بالله رابطة ، ومن لا يعرف حدود قدرته وقدرة خالقه .

« قل : إن الأمر كله لله » . .

فلا أمر لأحد . لا لهم ولا لسواهم . فالأمر كله لله والقدرة كلها لله .

على أن سؤالهم ذاك إنما يخفى وراءه معنى يكتمونه ؛ يريدون ليقولوا : إنهم إنما دفعوا دفعا إلى مصير لم يختاروه ؛ ولم يستشاروا فيه .

« يقولون : لو كان لنا من الأمر من شىء ما قتلنا هاهنا » .

هنا يجيئهم القرار الحاسم الصارم ، ويكشف لهم عن الحقيقة العميقة الدقيقة .. إن الأجل مكتوب لا يستقدم ولا يستأخر ، فإذا حم الأجل سعى صاحبه بنفسه إليه ، وجاءه بقدميه ، لا يسوقه أحد ، ولا يدفعه إلى مضجعه المقسوم :

« قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » .

ياللتعبير العجيب .. «إلى مضاجعهم» .. فهو مضجع إذن ذلك الرمس تستريح فيه الجنوب ، وتسكن فيه الخطى ، وينتهى إليه الضاربون فى الأرض . مضجع يأتون إليه طائعين ، فعلام الجزع إذن من المضجع الساكن الأمين ؟ !

فأما الموت فأمره ذاك . ليس الجهاد هو الذى يسببه ، ولكنه الأجل هو الذى يستدعيه . أما ذلك الذى أصابهم من الابتلاء فلحكمة أخرى :

« وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم » .

فليس كالمحنة امتحان يكشف ما فى الصدور ، ويصهر القلوب فينفى عنها الزيف والرياء ، ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء .

« والله عليم بذات الصدور » .

عليم بالأسرار الملازمة للصدور ، المختبئة فيها ، المصاحبة لها حتى ليعبر عنها بذات الصدور . ولـكنه ـ كما سلف ـ يريد أن يكشف للناس عنها ، ليتعلق علم الله بالعمل لا بالنية ، وليحاسب على الأعمال لا على مجرد النيات .

ولقد علـم الله دخيلة الذين هزموا وفروا يوم التقى الجمعان فى غزوة أحـد .. إنهم كانوا ضعفاء أمام الشدة . كانت لهم دخائل من معاصى ارتكبوها ، فظلت نفوسهم مزعزعة بسببها ، فدخل عليهم الشيطان من ذلك المنفذ ، واستزلهم فزلوا :

« إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » .

وهو تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة ، فتفقد ثقتها فى قوتها ، ويضعف بالله ارتباطها ، ويختل توازنها وتماسكها ، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس ، ما لم تسارع إلى ذكر الله واستغفاره والتوبة إليه ، ليعود إليها أمنها واطمئنانها وتماسكها .

ولقد عفا الله عن هؤلاء الذين استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ؛ ولم يحل عليهم غضبه ، فسامحهم ، وغفر لهم .

« إن الله غفور حليم » .

* * *

وبمناسبة استعراض مشهـد الفزع والجزع ، يرتد السياق إلى الذين آمنوا ، يدعوهم إلى الانتصار على الخوف ، ويشجعهم على المضى فى الجهاد ، ويحذرهم أن يكونوا كالـكافرين الذين لا يدركون سنن الله ، ولا يعرفون أن الموت والحياة محكومان بالأجـل المـكتوب ، فيقولون لإخوانهم إذا خرجوا للـكسب أو للغزو : لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا ؟ ويتحسرون على أن تركوهم يخرجون .. ويعد الذين يستشهدون فى سبيل الله مغفرة ورحمة ، والجميع محشورون إلى الله على كل حال . ثم يوجه القول إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعوه إلى العفو عنهم فيما كان منهم ، وإلى استغفار الله لهم ؛ كما يدعوه إلى مشاورتهم فى الأمر ـ حتى بعد ما بدر منهم

من اختـلاف فى الرأى ، وضعف عن احتمال تبعاته ؛ ويذكره أن رحمتـه بهم هى التى جمعت قلوبهم حوله ، فلو كان فظا غليظ القلب لانفضوا من حوله . ثم يرتد الخطاب إلى المؤمنين ليقرر لهم أن النصر والخذلان بيد الله دون سواه ، فليتوكلوا عليه وحده ،فالمؤمنون يتوكلون على الله بحكم إيمانهم وإليه يتوجهون :

«يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ، وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ،ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون . فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ؛ فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . •

إن قول الكافرين : «لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا» ليكشف عن الفارق الأساسى بين موقف صاحب العقيدة وغيره من الحياة كلها وأحـداثها وسرائها وضرائها . إن صاحب العقيدة لمطمئن إلى ماتأتى به الأحداث ، لأنه يعلم أن لن يصيبه إلا ما كتب الله له ؛ فهو لايتلقى الضراء بالجزع ، ولايتلقى السراء بالزهو ، ولا تطـير نفسه لهـذه أو لتلك . إنه الاطمئنان والاستقرار فى كل الأحوال .. فأما الذى يفرغ قلبه من العقيدة فى الله فهو أبدا مستطار . أبدا فى قلق . لأنه غير مشدود إلى محور ثابت ، وغير متصل بالسنة الراسخة .

« لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا » :

يقولونها لأنهم محجوبون عن الأسباب الحقيقية للموت والحياة . لايرون إلا الملابسات الظاهرة التى يعتقدونها عللا وأسبابا .

« ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » .

فإحساسهم بأن خروج إخوانهم ليضربوا فى الأرض طلبا للرزق ، أو ليغزوا ويقـاتلوا فيقتلوا . إحساسهم بأن هذا الخروج هو سبب الموت أو القتل ، يذهب بأنفسهم حسرات أن لم يمنعوهم من الخروج ! ولو كانوا يعلمون السبب الحقيقى وهو استيفاء الأجل ما تحسروا ، ولفاءوا إلى الله راضين أو صابرين .

« والله يحيى ويميت » .. فبيده إعطاء الحياة ، وبيده استرداد ما أعطى : فى الموعد الذى يضربه والأجل الذى يحدده . سواء كان الناس فى بيوتهم أو فى ميادين الكفاح للعيش أو للعقيدة .

فيا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا فيما يعتقدون :

« والله بما تعملون بصير » .. عالم بدخائل الصدور .

على أنكم لو قتلتم — فى سبيل الله — أو متم ، فإن مغفرة الله لكم ، ورحمته بكم، خير من حياة أولئك الكفار المقطوعة الصلة بالله ، الهابطة إلى الأرض ، ومما يجمعون فيها من مال ومتاع . وإنكم لمحشورون إلى الله على كل حال سواء متم ميتة عادية ، أو قتلتم فى الجهاد . فخير إذن أن تلقوا الله وقد نهضتم بتكاليف الإيمان ؛ وجاهدتم فى سبيله حتى وافاكم الأجل الموعود ، الذى لا ينقص منه الجهاد .

وقبل أن يتمم توجيهاته للذين آمنوا عن النصر والهزيمة وأسبابهما الأصيلة يتوجه إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — وفى نفسه شىء من القوم خالفوا عن أمره ، وضعفوا أمام إغراء الغنيمة ، ووهنوا إذ سمعوا نبأ كاذبا عن مقتله . وانقلبوا على أعقابهم مهزومين وتركوه يثخن بالجراح ، وهو صامد لا يتزعزع .. يتوجه إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — يذكره نعمة الله عليه وعلى المسلمين أن جعل قلبه رحيما بهم ، لينا معهم. ولو كان فظا غليظ القلب لنفروا منه وشردوا .. ذلك ليستجيش هذه الرحمة الكامنة فى صدره — عليه الصلاة والسلام — فتغلب ما فى نفسه منهم .. ثم يدعوه أن يعفو عنهم ويستغفر الله لهم ، ويشاورهم فى الأمر كما كان يشاورهم .. حتى إذا اعتزم — بعد المشاورة — لم يتردد ، ومضى متوكلا على الله لا يتلفت .

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك،فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر . فإذا عزمت فتوكل على الله . إن الله يحب المتوكلين »

وهكذا يقرر الإسلام مبدأ الشورى فى الحكم . حتى ومحمد الرسول هو الذى يتولاه . وهو نص جازم قاطع ، لايترك للأمة المسلمة شكا فى أن الشورى مبدأ أساسى ، لايقوم حكم الإسلام على أساس سواه . . أما كيف تتم هذه الشورى . فذلك متروك لمقتضيات الحياة ، واختيار الأمة المسلمة حسبما تراه .

وينتهى هذا النص بتثبيت قلوب المؤمنين ، وردها إلى الله وحده ، فبيده النصر والخذلان .

« إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ »

ولقد سبق بيان سنة الله فى النصر والهزيمة . وأنه لايعطى النصر إلا لمن يستحقه ، ولا يكتب الهزيمة إلا لمن يستحقها كذلك . وأن هذا وذلك تحقيق لمشيئته ، لأنه تحقيق لسنته التى لاتتخلف ولا تحابى .

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . .

والاتكال على الله يقتضى أولا تحقيق أوامره فى إعداد العدة وبذل الجهد . فإن من لايطيع أوامر الله لايتكل عليه بداهة . إنما يكون الاتكال للمطيع ، وإنما يقبل الاتكال من المؤمن . والمؤمن هو الذى يسمع الأمر ويتوخاه . . وعلى هذا الأساس فلنفهم معنى الاتكال على الله ، حيثما ورد فى القرآن الكريم . ولنفهم كيف تتحقق مشيئة الله ، بتحقيق السنن التى أرادها ، وأمر الناس أن يدركوها ، وأن يتبعوها ، وأن تكون حياتهم واتجاهاتهم معها على وفاق .

* * *

ولقد كان من بين العوامل التى جعلت الرماة يزايلون مكانهم من الجبل ، خوفهم ألا يقسم لهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغنائم ، وأن يعدهم لم يشاركوا فى القتال ! كذلك كان بعض المنافقين قد تكلموا بأن بعض غنائم بدر من قبل قد اختفت ، وهمسوا باسم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا المجال :

فهنا يأتى السياق بحكم عام ينفى عن الأنبياء عامة إمكان أن يغلوا . . أى أن يخونوا ويحتجزوا شيئا من أموال الغنائم أو سواها :

« وما كان لنبى أن يغل ، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لايظلمون »

وطبيعى أن قوله : « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » لايدخل فى عداده الأنبياء ، لأنه نفى من أول الأمر إمكان وقوع ذلك منهم أصلا . إنما هو حكم موجه لغير الأنبياء . وقد كان الرجل من المسلمين يقع فى يده الثمين من الغنيمة ، وهو وحده لايراه أحد ، فيأتى إلى أميره بكل ماوجد لايغل شيئا ، خشية أن ينطبق عليه هذا النص . . وهكذا ربى القرآن المسلمين تلك التربية الكاملة التى تكاد أخبارها تحسب فى الأساطير .

ثم يستطرد السياق إلى موازنات سريعة بين الفريق الذى يطلب رضى الله ويؤثره على عرض الدنيا ، ويتبع الطريق الذى يحقق ذلك الرضى ؛ والفريق الذى يتنكب الطريق ، فيؤوب بسخط الله ، وينتهى إلى جهنم وساءت مصيرا . ويقرر أن مقام أولئك عند الله غير مقام هؤلاء ، وأن الله مطلع على عمل الجميع ، بصير بما وراءه من نيات :

أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ؟ هم درجات عند الله ، والله بصير بما يعملون »

وهذا الاستطراد هنا ليس غريبا على الجو . جو الطمع فى عرض الدنيا،وجو الغنائم والأمانة فى أدائها أو الخيانة . . فهو توجيه إلى ابتغاء رضوان الله ، وهو خير من كل عرض .وتحذير من سخط الله الذى لا ينفع معه ثراء . ولما كانت الموازنة بين من يبتغون رضى الله ومن ينتهون إلى سخطه ،كان جزاء هؤلاء وهؤلاء هو القرب والبعد من الله ، : « هم درجات عند الله » وهذا وحده جزاء .

* * *

ثم يرتد السياق إلى صميم المعركة وما جرى فيها ، وما لابسها من مشاعر وانفعالات . يعود إلى تذكير المسلمين بأنهم إن كانوا قد أصيبوا فى أحد ، فقد أصابوا قبل ذلك فى بدر فينبغى إذا ذكروا الغرم أن يذكروا الغنم . وقبل أن يأخذ السياق فى هذا يبدأ فيذكرهم بالنعمة الكبرى . النعمة التى لا تقاس إليها تضحية ولا مشقة . نعمة الإيمان . ونعمة إرسال الرسول الذى هداهم إليه . فهذه وحدها ترجح كل ما يحل بهم من محنة :

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »

إنها المنة الكبرى ، والنعمة العظمى ، أن ينتقلوا من الضلال المبين الذى كانوا فيه ، ويرتفعوا على ذلك المستوى الهابط الذى لا يليق بالإنسان . . وهو يعبر تعبيرا مجملا عن ذلك الذى كانوا فيه ، بأنه ضلال مبين . ولكن هذا الإجمال يفصله شيئا ما ورد قبله من عمل الرسول فيهم : « يتلو عليهم آياته » فيرفع مداركهم « ويزكيهم » فيطهرهم من دنس الشرك والمعصية والهبوط الإنسانى « ويعلمهم الكتاب » فينقلهم من الجهالة إلى المعرفة « والحكمة » فيهديهم

إلى الرشد والإدراك السليم . . لقد كانوا محرومين من هذا كله . . كانوا فى ضلال مبين . .

وليس هذا هو كل مايعطيه النص من ظلال . . إنه يتضمن تعبيرا دقيقا عميق الدلالة :

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » ..

لم يقل رسولا منهم . ولكن « من أنفسهم » إنها الصلة الروحية العميقة إذن هى التى تجمع بينهم وبين الرسول . صلة النفس بالنفس فى أعماقها : لاصلة الفرد بالفرد فى ظاهرها . ثم إن فى هذه المنة تكريما لهم وللبشرية معهم . إن الرسول منهم . بل من أنفسهم . فلهم من اختيار الله لواحد منهم ، ولنفس من نفوسهم معنى من معانى التكريم بلا جدال . نعم إن الاختيار قد وقع على شخص الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولكن الرسول نفس منهم ، فظلال التكريم الإلهى تشملهم .

فهذه فى ذاتها منة ونعمة ، تضاف إلى تلك النقلة التى نقلهم إياها الرسول ، غير متعال عليهم ولا متفضل ، لأنه واحد منهم ، ونفس من أنفسهم ، تربطهم به تلك الصلة العميقة الجذور ، ويضمهم إلى نفسه ذلك النسب الأصيل فى الشعور .

وهكذا يكون ذكر هذه النعمة الكبرى خير مقدمة للموازنة بين ما أصابهم من خسارة ، وما تحقق لهم من كسب بهذه الرسالة . . ثم تجىء بعدها الموازنات التفصيلية :

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شىء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم . هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ماقتلوا . قل : فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » .

لقد سلف ذكر المنة الكبرى والنعمة العظمى . فهنا يجىء السؤال الاستنكارى :

« أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ! »

يجىء هذا السؤال الاستنكارى فى موضعه . فأين مكان هذه المصيبة الصغيرة بالقياس إلى تلك النعمة الكبيرة ؟ على أن هذه المصيبة ذاتها قد أصابوا هم مثليها من قبل فى بدر . فعجيب ومستنكر أن يستنكروا إصابتهم بشىء مما أصابوا ، وأن يسألوا كيف يقع هذا وكيف يكون ؟

كأنما كانوا يحسبون أن النصر مضمون لهم ، مهما يكن تصرفهم وبعدهم عن أسباب النصر الحقيقية من استعداد وطاعة وانتصار على شهوات النفوس ومطامعها وثبات للشدة واتجاه إلى الله :

« قل : هو من عند أنفسكم » ..

فأنفسكم هى التى ضعفت عن الإغراء ، وهى التى أعجلتكم عن الصبر ، وهى التى قادتكم إلى الهزيمة فى المعركة الحربية ، بعد ما هزمت فى معركة المطامع والمطامح : فذلك تأويل كيف وقع هذا ، وكيف أصابكم ما أصابكم .

« إن الله على كل شىء قدير » . .

قادر على أن يهبكم النصر ، حين تنتصرون على شهواتكم وعلى إغراء العرض الزائل . وقادر على أن يديل عليكم أعداءكم ، لحكمة كامنة . حكمة تكشف عنها الآية التالية فى النص :

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله .. وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا ... »

ولقد ورد شبيه لهذا المعنى فى سياق استعراض المعركة من قبل ، ولكنه هنا يضيف جديدا ، ويفصل ما أجمل فى شأن المنافقين :

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم »

أولئك هم جماعة عبد الله بن أبى بن سلول رأس النفاق . الذين خذلوا المسلمين قبل أن تبدأ المعركة ، والذين انعزلوا عن الجيش وارتدوا ، فلما دعوا أن يقاتلوا أو يدافعوا قالوا فى تهكم : لو نعلم قتالا لاتبعناكم . كأنهم يردون بهذا التهكم على عدم أخذ النبى — صلى الله عليه وسلم — بمشورة كبيرهم . فكأنما يقولون : لو كنا نعلم قتالا ولنا فى القتال دور ، لأخذتم برأينا !

« هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان . يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم »

هم منافقون يقولون غير ما يكتمون . والمنافق أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان . فالنفاق والإيمان لا يجتمعان ولا يقتربان .

« والله أعلم بما يكتمون » .

ثم يستمر السياق يستعرض ما كان من هؤلاء المنافقين فى ذلك اليوم الذى أراد الله أن يكشف فيه عن نفاقهم ، ويظهره على الملأ ، ولو أنه يعلم ما يكتمون :

« الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا » ..

فهم لا يكتفون بأن يقعدوا ، بل يشيعون الفشل والتردد فى نفوس الآخرين ، فيدعونهم إلى القعود مثلهم اتقاء للموت ، كأن الخروج للقتال هو سبب الموت ..

عندئذ يجبههم ويتحداهم بأمر واقع لا نكران فيه :

« قل : فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » ..

والموت يصيب القاعدين كما يصيب المجاهدين . فإن كانوا صادقين فليدرأوا عن أنفسهم الموت بقعودهم . وما هم بمستطعين .

إنه تحد يتلقاهم به سريعا . وقبل أن يكمل الآية القصيرة . لأن مقالتهم تلك خطيرة ، وماكرة ، وكفيلة بأن تشيع التردد والندم على الخروج للجهاد ، وبخاصة حين تذكر عقب الهزيمة ، وفى النفوس ضعف الهزيمة ، وفى الجو رائحتها وظلها .. لهذا جاء ذلك التحدى القاطع الذى يكشف الكذب ، ويفضح الدسيسة .

على أن الذين يستشهدون ، لا تنتهى حياتهم ، ولا يموتون ميتة القاعدين :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء ـ عند ربهم ـ يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين »

إن النص على أن الشهداء ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم ، يتكرر فى القرآن الكريم . والشهيد لايغسل لطهارة جسمه تبعا لهذه القاعدة . قاعدة أنه حى عند الله .

ولكننا ـ فيما ترى أعيننا وفيما تحكم مقاييسنا المادية ـ نرى الشهداء يموتون ، وتفارقهم تلك الحياة الحيوانية المعروفة .. فكيف نوفق بين مانؤمن به من قول الله سبحانه ، وماتراه أعيننا وتدركه مقاييسنا الأرضية ؟

إن النص يهدينا إلى ذلك التوفيق .. إنه يقرر أنهم أحياء « عند ربهم » وإذن فهى حياة لاندرى نحن كنهها ، لأنها ليست حياة عندنا . إننا نعرف لوناً من ألوان الحياة التى شاهدناها بوسائلنا البشرية المحدودة . وقد كررنا أن الذى ندركه نحن ليس هو آخر ما يحويه الوجود من مدركات . وحياة الشهداء « عند ربهم » وكلمة « عند » قد تدل على القرب من الله ، كما قد يكون معناها « فى اعتبار الله » وهى فى كلتا الحالتين تثبت للشهداء حياة ، من نوع غير ما نعرفه فى هذه الحياة .

فإذا نحن تتبعنا النص ، وجدنا أن لهذه الحياة سمات يجب أن نردها هى الأخرى إلى تصورات غير تصوراتنا البشرية ..

نجد أن هؤلاء الشهداء « يرزقون » . فلا نملك أن نحدد نوع الرزق ولا كنهه . أهو من نوع ما فى الدنيا ؟ أم هو من نوع ما فى الحياة الآخرة ؟ وإذا كان فما هو وما طبيعته ؟ كل هذا لانملك الإجابة عليه بالتحديد .

ونجد هؤلاء الشهداء « فرحين بما آتاهم الله من فضله » فنقف كذلك أمام الفرح لاندرى طبيعته . أهو فرح من نوع ما كانوا يفرحون فى الأرض ؟ أم هو فرح روحى مجرد عن انفعالات الجسد ؟ أم هو غير هذا وذاك ؟ وكذلك « ما آتاهم الله من فضله » أهو الشهادة التى تعفيهم من الحساب وتدخلهم الجنة ؟ أم هو الرزق الذى سبقت الإشارة إليه ؟ كل ذلك غيب نؤمن به ولا ندرى كنهه . وكل تحديد له تكهن يحتاج إلى الدليل .

ونجد أن هؤلاء الشهداء يستبشرون بأن إخوانهم المؤمنين الذين خلفوهم فى الدنيا لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . . يستبشرون بنعمة الله وفضله . وقد عرفوهما وتأكدوا أن الله يمنحهما عباده لأن الله لايضيع أجر المؤمنين .. وإذن فهم ما يزالون على اتصال بإخوانهم « الذين لم يلحقوا بهم » بعد ، يهمهم أمرهم ، ويستبشرون بالخير الذى سيصيبهم ، والذى نالهم هم وعرفوه ، وتأكدوا أن الله سيمنحه لزملائهم كما منحهم إياه .. وإلى هذا الحد يقف إدراكنا فلا نتعداه .

على أية حال نحن ننتهى إلى حقيقة مقررة لاريب فيها .. وهى أن الذين يستشهدون فى سبيل الله لا تنقطع حياتهم بالموت ، كما تنقطع حياة الذين يموتون ميتة القاعدين .. فهم باستشهادهم أربح من هؤلاء القاعدين ، وأطول حياة . لأن حياتهم فى الأرض تمتد ـ على نحو لا ندركه ـ بحياة أخرى عند ربهم . فيها استمتاع برزق الله ، وفرح بفضله ، واستبشار بمصير زملائهم الأحياء ..

ولكن أى الأحياء ؟ إنهم أولئك الذين لم تزلزلهم المحنة ، ولم تقعدهم الجراحات عن مواصلة الكفاح ، ولم يرهبهم تجمع الأعداء ، وإرجاف الناس بهذا التجمع ، وهم مثخنون بالجراح :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم . فزادهم إيمانا . وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

إنها صورة قوية للنفس المؤمنة، فحين تتم حقيقة الإيمان فى النفس الإنسانية، تهون عقبات الدنيا، وتصغر آلام الدنيا، وتتضاءل مخاوف الدنيا، وترتفع هذه النفس على جميع الاعتبارات وجميع الملابسات وجميع التصورات المنبعثة من اللحم والدم، ومن هذه الأرض التى يلصق بها اللحم والدم :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح » ..

وما القرح حين تتطلع النفس إلى آفاق الاستشهاد ؟ إن النفس حين ترى الموت فى سبيل الله أمنية، تصبح جميع الآلام سهلة هينة .. وهؤلاء المؤمنون كانت غزوة أحد قد أثخنتهم بالجراح ؛ ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بعد نظره وحسن تقديره لخوالج النفوس خشى أن تكر عليهم قريش بعد انصرافها طمعا فى ضعفهم بعد الهزيمة . كما أنه ـ صلوات الله عليه ـ لم يرد أن تكون الهزيمة هى آخر ما تنطوى عليه جوانح المسلمين . فنادى فى اليوم التالى لانتهاء الغزوة ورحيل قريش .. نادى أصحابه ليخرجوا ويعسكروا خارج المدينة، كى تعلم قريش أن المسلمين لم يضعفوا، وأنهم على استعداد للقتال إن وسوس لقريش الطمع بمعاودة الهجوم ؛ ثم لكى تشتد عزائم المسلمين، ويستردوا ثقتهم بأنفسهم، وثقتهم فى الهجوم من جديد .. عندئذ استجاب للرسول أولئك الذين تصفهم الآية هذا الوصف الموحى: « الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح » . . « الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل »

وكان ما قدره الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنافذ بصيرته قد وقع، فإن قريشا ندمت على ذهابها والمسلمون ضعاف، وهمت أن تعود فتدخل عليهم المدينة . وعلم المسلمون بهذا . علموا أن قريشا عائدة .. وقال لهم الناس . « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » فهم فى عدد كثير، وهم فى صحة وقوة .. ولكن ما الذى يخشاه من وهب نفسه لله، ونوى الشهادة فى سبيل الله ؟ إنه لا يخاف شيئاً وهو يعتمد على الله :

« فزادهم إيمانا، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » ..

لم يزعزع التهديد ثقتهم بالله، ولا ثقتهم بالعاقبة . بل زادهم إيمانا واعتمادا على الله واكتفاء به، وتسليما لأمره . . وكان ما لا بد أن يكون . كان هذا الإيمان منهم مثار رهبة لقريش حين علمت بخروج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم وجيشه ـ فعلمت أن فيهم قوة وجلدا، فرضيت من

الغنيمة بالإياب وانصرفت ؛ وخلت طريق المسلمين :

« فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ..

« واتبعوا رضوان الله » ..

ساروا على النهج الذى ينتهى إلى رضوان الله ؛ وقادهم هذا الرضوان إلى العمل الدائب فى سبيل الاحتفاظ به .. والذى يحس رضوان الله يبيع نفسه كلها ليشريه ، ويضحى بكل الاعتبارات الأرضية ليظل أهلا له .

« والله ذو فضل عظيم » ..

يهب هذا الرضوان لمن يعملون له ؛ ويسيرون على النهج الذى يصلهم به . وهو فضل من الله عظيم .

« إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ .

« مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

« وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَنَقُولُ : ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ *

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ . قُلْ : قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ، فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟* فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ *

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ، فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

انتهى السياق فى الدرس الماضى بنهاية الأحداث فى غزوة أحد . وكانت نهاية الأحداث هى صورة الشجاعة الكريمة ، بعدصورةالهزيمة . صورة : « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهمالقرح » . . « الذين قال لهمالناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . .

ففى هذا الدرس يستمر السياق فى تشجيع المؤمنين على النهوض بتبعات رسالتهم الشاقة . . يبدأ أولا بالكشفعن أسباب الخوف فىالنفسالإنسانية ، ليعرف المؤمنون مأتى الخوف . ومتى عرفوه اجتنبوه .

ويثنى بالتسرية عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شأن الذين يسارعون فى الكفر فيطمئنه بأنهم لن يضروا الله شيئا ، وأنهم غير معجزى الله ، إنما هو يملى لهم ليفتنهم . .

ثم يثبت المؤمنين على الابتلاء . لأن وراءه حكمة . . حتى يميز الله الخبيث من الطيب . .

وبعدها يكشف عن مصير اليهود الذين يبخلون بأموالهم إذا دعوا إلى البذل ويقولون : إن الله فقير ونحن أغنياء ! ويكذبون بدعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ معتذرين بطلب معجزات خاصة ، وهم قتلوا من قبل أنبياءهم الذين جاءوهم بما طلبوا من معجزات ! فليس تكذيبهم للرسول أول تكذيب . وليس هو بأول رسول لقى التكذيب .

وفى ظلال المعركة ، التى ما يزال السياق مغموراً بها ، يقرر أن كل نفس ذائقة الموت . فلا خوف من الجهاد والقتال . والعبرة بما تلقاه النفوس بعد الموت من جزاء .

وفى نهاية هذا الدرس ينبىء الله المسلمين أن تكاليف الدعوة لن تقف عند ما أصابهم فى أحد . فإن فى الابتلاء بقية . وأنهم سيصابون فى الأموال والأنفس . وأنهم سيسمعون مايسوءهم من أهل الكتاب ومن المشركين . فلابد من الصبر حتى النهاية . . أما أهل الكتاب الذين خانوا الأمانة فحسابهم على الله . ولهم عذاب أليم .

وهكذا نحن ما نزال أولا فى ظلال المعركة . وما نزال أخيرا فى الظلال العامة لسورة آل عمران ، التى أسلفنا الحديث عنها فى مطلع السورة . . فلنأخذ فى شىء من التفصيل :

***

« إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه . فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين »

إن مصدر الخوف هو الشيطان ، الذى يفرغ قلوب أوليائه من الإيمان بالله ، والثقة فى نصرته . ومن ثم تصبح هواء . ويحل الجبن فيها محل الشجاعة ، والحرص على الحياة وأعراضها محل الرجاء فيما عند الله وهو خير وأبقى . . وما يؤمن قلب بالله ثم يستشعر الخوف من قوة أرضية مهما عظمت واستطالت . وما يتطلع قلب إلى ماعند الله ثم يحرص على شىء مما فى هذه الدنيا ، وما يثق قلب فى رحمة الله ، ثم يخشى عوزا أو هزيمة أو أذى من خلق الله .

وما دام أولياء الشيطان هؤلاء يواجهون المسلمين ـ وهم منخوبو الأفئدة ـ فلا على المسلمين منهم ، وليس للمسلمين أن يخشوهم .

« فلا تخافوهم وخافون . إن كنتم مؤمنين » . فالإيمان بالله يقتضى ألا يخافوا سواه . ويملأ قلوبهم شجاعة وثقة واطمئنانا إلى المصير .

إن القوة المهتدية ، المتصلة بمصدرها الأول ، التى تستقى من النبع الأصيل هى القوة الحقيقية . وما عداها هواء :

« ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، إنهم لن يضروا الله شيئاً » . .

ولا تحزن كذلك إذا ما شهدت الكافرين يسارعون فى الكفر ، ويبلغون فيه أشواطاً بعيدة ، كأنما هم فى سباق . إنهم مهما كثروا ومهما بلغوا من الكفر والعناد لن يضروا دعوتك ، ولن يضعفوا جبهتك . .

ولكن التعبير هنا يأخذ طريقاً عجيباً :

« إنهم لن يضروا الله شيئا » . .

لم يقل : إنهم لن يضروك شيئا . . لقد أضاف الموقف كله إلى الله سبحانه ، ونسب القضية كلها إليه ، ليشعر الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن قضية هذه الدعوة فى يد أقوى ، وفى جنابه أرفع . فلا عليه أن يكفر من يكفر ، وأن يبالغ فى الكفر . فليمض هو فى رسالته ، والله يتولى قضيته ودعوته . . ولن يضروا الله شيئا : ومن هم حتى يضروا الله ؟ !

وما بالهم إذن — فى ظاهر الأمر — ذوى قوة وذوى مال ؟ إن ذلك كله إلا ابتلاء :

« يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة . ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ، ولهم عذاب أليم » .

إنهم يسارعون فى الكفر ويبالغون . ولقد كانوا يملكون الإيمان . كانوا يملكونه فعلا ، فعوامل الإيمان فى النفس ، ودلائله فى الكون ، تجعل الإيمان هو الفطرة الكامنة فى كل إنسان . ولكنهم اشتروا به الكفر الذى يسارعون فيه ويبالغون . لذلك قدر الله حرمانهم من حظ الآخرة : « يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة » . . وماهم ببالغين بكفرهم العنيف البليغ أن يضروا دعوة الله . لأنهم لن يبلغوا أن يضروا الله الذى أراد لهذه الدعوة النجاح .

« ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما . ولهم عذاب مهين »

وإذا كان الله لا يأخذهم بكفرهم ومسارعتهم فى الكفر ، وإذا كان يعطيهم حظا فى الدنيا . .

فلا يحسبن الذين كفروا أن هذا الإملاء والإمهال خير لهم .: والتعبير يقول : « خير لأنفسهم » فإن أنفسهم هى التى تتأثر بالإملاء لهم ، فتزداد كفرا وغرورا ومعصية :

« إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » :

ولو كانوا يستحقون أن يخرجهم الله من غمرة النعمة بالابتلاء الموقظ ، لابتلاهم .. إنما هم اشتروا الكفر بالإيمان ، واختاروا طريق الكفر وسارعوا فيه . فلم يعودوا يستحقون أن يوقظهم الله بالابتلاء من غمرة النعماء !

وإذا كانوا اليوم فى نعمة وعز وجاه .فإنما ينتظرهم جزاء يعدل هذا كله ، ويعكس هذا كله:

« ولهم عذاب مهين » :

والإهانة هنا هى المقابل لما هم فيه من تكريم ظاهرى يملى لهم الله فيه ، لينتهى بهم إلى العذاب والهوان .

ومن هنا يتكشف أن الابتلاء من الله نعمة لا تصيب إلا من يريد الله له الخير ، فإذا أصابت المؤمنين ، فإنما تصيبهم لخير يريده الله بهم ، والحكمة تحقق هذا الخير من أية طريق .

ولقد شاءت حكمة الله أن يميز المؤمنين من المنافقين الذين يندسون فيهم، ويتشبهون بهم وهم ليسوا منهم . فابتلاهم . وما كان الله ليتركهم مختلطين مشتبهين . ولكنه كذلك ما كان ليطلعهم على الغيب الذى يعلمه من ضمائر الناس ونياتهم . فهذا الغيب لله.وللناس الظاهر .ولكن الله يختار الرسل ليبلغوا الدعوة ، فيؤمن من يؤمن ويكفر من يكفر . ويجاهد المسلمون لنشر الدعوة ، ويقع الابتلاء الذى يكشف المؤمنين حقا والمنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان . ويتميز المؤمنون والكافرون بالأعمال الظاهرة التى تناط بها الأحكام :

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ، حتى يميز الخبيث من الطيب . وما كان الله ليطلعكم على الغيب . ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ، فآمنوا ، بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

وهذه الدعوة إلى الإيمان تأتى فى نهاية الآية مع أن مطلعها موجه إلى المؤمنين .. ذلك أن الآية قد كشفت عن علة من علل اختيار الرسل ، واجتبائهم . هى تمييز الخبيث من الطيب.ومن ثم توجهت إلى المخاطبين مرة أخرى تدعوهم إلى الإيمان بالرسل، توكيدا لإيمانهم بعد ما كشف لهم عن قيمته ،ودعاهم إلى أن يبلغوا فى إيمانهم درجة التقوى ، وبشرهم بالأجر العظيم . لأنه فى صدد ذكر الامتحان والبلاء . ففى هذا الأجر عوض وجزاء.

***

والدعوة إلى بذل المال تقترن كثيرا بالحديث عن الجهاد والتضحيات . . فالجهاد فى حاجة إلى من يجودون بأموالهم حاجته لمن يجودون بأرواحهم . ومن ثم يستطرد السياق هنا ـ وهو يكشف للمؤمنين عن حكمة الابتلاء فى الأرواح والأجسام ، وأنها كانت ليميز الله الخبيث من الطيب ـ يستطرد إلى الحديث عن الذين يبخلون بأموالهم ، ويحسبون أن الاحتفاظ بها خير لهم ، فينفى هذا الحسبان الكاذب ، ويقرر أن ما كنزوه سيطوقونه يوم القيامة نارا . . وهو تهديد فظيع . . ثم يقرر أنهم ذاهبون وتاركوه ، وأن لله ميراث السماوات والأرض ، فهو وحده الحى الباقى بعد أن يزول الجميع . وإذن فهذا الكنز إلى أمد قصير . فمن الخير لأصحابه أن يقدموه بين أيديهم ذخرا ، بدل أن يطوقوه يوم القيامة نارا ، ثم هو فى النهاية راجع إلى الوارث الباقى الواحد الذى لا يموت :

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السماوات والأرض ، والله بما تعملون خبير » .

والتعبير يزيد هذا البخل شناعة حين يذكر أنهم « يبخلون بما آتاهم الله من فضله » . فهم لا يبخلون بمال أصيل لهم . فقد جاءوا هذه الدنيا لا يملكون شيئا · ولا جلودهم . فآتاهم الله من فضله وأغناهم . حتى إذا طلب إليهم أن ينفقوا فى سبيله شيئا مما آتاهم ، ووعدهم ـ مع ذلك ـ عوضا عنه أجرا فى الآخرة ، لم يذكروا فضل الله عليهم ، وبخلوا بالقليل الذى وعدهم أن يضاعفه لهم أضعافا كثيرة ، وحسبوا أن كنزه فى أيديهم خير لهم . وهو شر لهم . شر فظيع مخيف : « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » ويا ليتهم مع هذا سيحتفظون به ، فهم ذاهبون وتاركوه : « ولله ميراث السماوات والأرض » فيا لها من خسارة ! ويا له من عذاب !

ثم يشير السياق إلى جماعة من يهود ، وجدوا فى أيديهم المال ، فحسبوا أنفسهم أغنياء عن الله ، فلا حاجة بهم إلى جزاء ، ولا إلى أضعاف كثيرة . وحسبوا أن الله يطلب إلى الناس أن ينفقوا بعض ما آتاهم فى سبيله لأنه افتقر ! وهو تصور يدل على الغباء كما يدل على سوء الأدب فى حق الله .

« لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء » ..

ثم يتبع هذا الخبر بالتهديد :

« سنكتب ما قالوا » ..

فلن يذهب قولهم فى الهواء . ولن ينسى . ولن يمضى بلا جزاء . وسنضم هذا القول إلى جريمة أخرى من جرائمهم . جريمة شنعاء : قتلهم الأنبياء بغير حق . . وضم ذلك القول إلى جريمة القتل يوحى بشناعته وبشاعته .

« سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق . ثم نقول : ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » . .

والنص على الحريق هنا مقصود لتبشيع ذلك العذاب وتفظيعه ، ولتجسيم مشهد العذاب بهوله وتأججه وضرامه . . جزاء على الفعلة الشنيعة : قتل الأنبياء بغير حق . الأنبياء الذين جاءوهم بالهدى ليوقوهم العذاب . . وجزاء على القولة الشنيعة : إن الله فقير ونحن أغنياء . . وجزاء على أن آتاهم المال من فضله ، فإذا هم جاحدون أغبياء .

« ذوقوا عذاب الحريق » . .

ذوقوه جزاء عادلا على ما فعلتم وعلى ما قلتم :

« ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » . .

والتعبير بالعبيد هنا . . رد على تمردهم وتبجحهم وعتوهم . . فهاهم أولاء فى عذاب الحريق يعرفون أنهم عبيد . وأن ما يلقونه من العذاب هو جزاء حق . وأن الله ليس بظلام للعبيد !

هؤلاء الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . والذين قتلوا أنبياءهم بغير حق . هم الذين يزعمون أنهم لا يؤمنون بمحمد — صلى الله عليه وسلم — لأن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان يقدمونه ، فتقع المعجزة وتهبط نار تأكل هذا القربان ، على نحو ما كانت معجزة بعض أنبياء بنى إسرائيل . ومادام محمد لم يقدم لهم هذه المعجزة ، فهم على عهدهم مع الله ! ! !

هنا يجبههم القرآن بالواقع التاريخى . . لقد قتلوا هؤلاء الأنبياء الذين جاءوهم بالمعجزات التى طلبوها وزيادة :

« قل : قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم . فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟ »

إنما هو الكذب والالتواء والإصرار على الكفر . والتبجح بعد ذلك والادعاء على الله .

« فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر [١] والكتاب المنير » .

فلست أول رسول يلقى التكذيب . فتلك شيمة الأقوام مع أنبيائهم الذين جاءوهم بعلامات

(١) الصحائف المتفرقة المنزلة من السماء . والتى لا تؤلف كتابا مسلسلا . إنما هى صفحات متفرقة .

بينة ، وصحائف من عندالله منزلة ، وكتاب هاد كالتوراة والإنجيل . . فلاعليك أن يكذبوك ، فلست بدعا من الرسل . وإن هذا لهو طريقكم المرسوم !

* * *

وفى ظلال المعركة التىلا يزال السياق متأثرا بها ، ثم فى ظلال التكاليف المفروضة على الأمة المسلمة فى كفاحها مع الكفار وأهل الكتاب ، وفى جهادها لتحقيق أهداف الدعوة ومايقتضيه من تضحيات . . فى هذه الظلال يقرر أن الموت نهاية كل حى ، وأنه متربص بكل نفس . فالقاعدون ملاقوه كالمجاهدين ، والجبناء واردوه كالشجعان . . إنما المعول عليه هو المصير . فكل نفس ستلقى أجرها من نوع ما عملت . والنار متعرضة فى طريق الجميع . فمن أدركته العناية بما قدم من عمل صالح فزحزح عنها فهو الفائز . . أما الحياة الدنيا وكل ما فيها فهى متاع الغرور الذى يغر ولا يدوم :

« كل نفس ذائقة الموت ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »

إن فى التعبير هنا تجسيما وتشخيصا يحتاج إلى أن نقف عنده لحظة . .

« كل نفس ذائقة الموت » . .

فكأنما هو جرعة تذاق .. فياله من مذاق !

« فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » . .

ولفظ « زحزح » بذاته يصور معناه بجرسه ، ويرسم هيئته ، ويلقى ظله . . لكأنما لجهنم جاذبية تشد إليها من يقترب منها . فهو فى حاجة إلى من يزحزحه قليلا قليلا ليخلصه من جاذبيتها المنهومة ! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها ، ويستنقذ من جاذبيتها ليدخل الجنة . . فقد فاز . ونجا من الغول الواقف بالمرصاد .

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . .

إنهمتاع . ولكنه ليس متاع الحقيقة ، ولا متاع الصحو والإدراك . . إنه متاع الغرور . المتاع الذى ينشئه الغرور والخداع ، فيخيل لأصحابه أنه متاع .

وبعد أن تكون النفوس قد تهيأت بهذا المشهد لتلقى الموت الذى تذوقه كل نفس لامحالة ،

حيث يبدو الموت على هذا النحو بداية لانهاية . بداية لها ما بعدها . والعقدة كلها فيما وراء هذه البداية . عقدة النار التى تنتظر كالغول الجبار !

بعد هذا يذكر للمؤمنين أنهم لابد مبتلون فى أموالهم وأنفسهم ، ولابد سامعون من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم ومن الذين اشركوا أذى كثيرا . . بعد أن تكون نفوسهم قد اطمأنت ، واستعدت لكل ما يصيبها من ابتلاء :

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » ..

إنها سنة العقائد والدعوات .. لا بد من بلاء ، ولا بد من صبر ومقاومة وصمود .

ذلك لكى يثبت على الدعوة أصلب أصحابها عودا ، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها إذن والصبر عليها فى مستقبلها ، فهم عليها مؤتمنون .

وذلك لكى تعز عليهم هذه الدعوة وتغلو بقدر ما يصيبهم فى سبيلها من عنت وبلاء، وبقدر ما يضحون فى سبيلها من عزيز وغال . فلا يفرطوا بعد ذلك فيها مهما تكن الأحوال .

وذلك لكى يصلب عود الدعوة وعود الدعاة . فالمقاومة هى التى تستثير القوى الكامنة ، وتنميها وتجمعها وتوجهها .. والدعوات الجديدة فى حاجة إلى هذه الاستثارة لتتأصل جذورها .

وذلك لكى يشعر المعارضون لها أن لابد فيها من خير ولا بد فيها من سر يجعل أصحابها يلاقون فى سبيلها ما يلاقون وهم صامدون .. فعندئذ ينقلب هؤلاء المعارضون إلى تلك الدعوة أفواجا ، كما يحدث فى نهاية المطاف .

إنها سنة الدعوات .. وما يصبر على ما فيها من مشقة ، ويحافظ فى ثنايا الصراع على تقوى الله ، فلا يشطولا يعتدى وهو يرد الاعتداء .ولا ييأس أو يقطع أمله فى الله وهو يعانى الشدائد، إلا أولو العزم :

« وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

***

وبمناسبة ذكر أهل الكتاب وإيذائهم للمؤمنين .. يذكر أن الله قد أخذ عليهم ميثاقا حين أعطاهم الكتاب أن يبينوه للناس ولا يكتموه . . فأية مفارقة تلك التى تجعلهم بدل أن ينفذوا

هذا الميثاق يؤذون المسلمين الذين يؤمنون بالكتاب ؟

« وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » ..

فما الذى كان ؟

« فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا » ..

والتعبير يجسم إهمالهم لهذا الميثاق الذى أخذه عليهم ، وللكتاب الذى أعطاهم مع هذا الميثاق. يجسمه فيجعله نبذا وراء الظهور . ويجعل ابتغاء النفع المادى بهذا الإهمال بيعا له بثمن قليل .

« فبئس ما يشترون ! » ..

ثم يشير إلى شىء من سلوك المنافقين منهم مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ كانوا يتخلفون عن الغزو معه، فإذا أصيب المسلمون فرح المتخلفون بقعودهم ونجاتهم من البلاء ، وإذا غنم المسلمون حاول المتخلفون أن يثبتوا لأنفسهم فضلا فى النصر ليس لهم ، وأحبوا أن يسمعوا الثناء عليهم وهم لم يفعلوا ما يستحق الثناء ..

« لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » .

وإن هذا النص ليصور نموذجا من الناس نجدهم فى كل مكان وزمان . نموذج الرجال الذين يعجزون عن احتمال تبعة الرأى ، وتكاليف العقيدة . فيقعدون متخلفين عن الكفاح . . فإن خسر الكافحون وهزموا رفعوا هم رؤوسهم وشمخوا بأنوفهم، ونسبوا إلى أنفسهم التعقل والحصافة والأناة .. أما إذا انتصر الكافحون وظهروا ، فإن أصحابنا أولئك يتظاهرون بأنهم كانوا من مؤيديهم ، وينتحلون لأنفسهم فضلا فى النصر ، ويحبون أن يثنى عليهم الناس بما لم يفعلوه ، وأن ينسبوا إليهم فضلا لا يد لهم فيه .

إنه نموذج من نماذج البشرية يقتات الجبن والادعاء . نموذج يرسمه التعبير فى لمسة أو لمستين، فإذا ملامحه واضحة للعيان، وسماته خالدة فى الزمان .. وتلك طريقة القرآن .

هؤلاء الناس يؤكد الله للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم لا منجاة لهم من العذاب ، فالعذاب الأليم ينتظرهم . ولا مفر لهم منه . والله الذى يتوعدهم هو مالك السماوات والأرض ؛ فأين المفازة إذن وكيف النجاة ؟

« ولله ملك السماوات والأرض ، والله على كل شىء قدير » ..

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا ، سُبْحَانَكَ ! فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ : أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ ، فَآمَنَّا . رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ، وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ، وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ، وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ .

« لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ، ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ .

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ، خَاشِعِينَ لِلَّهِ ، لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا ، وَصَابِرُوا ، وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

نحن فى الدرس الختامى فى سورة « آل عمران » .. السورة التى كان سياقها فى معظمه بيانا للعقيدة ، وجدالا عنها ، وتثبيتاعليها .. فهذا الختام يتسق مع جو السورة كلها ،وظلالها المتفرقة فى ثناياها . ويتصل مباشرة بآخر آية فى الدرس السابق : « ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شىء قدير » .

هذا الدرس يبدأ بعرض حقيقة عميقة . إن فى خلق السماوات والأرض لآيات كافية للإيمان بخالق الأرض والسماوات. وإن مجرد التأمل فى هذه الآيات عن إدراك ووعى، ليقود إلى الإيمان بالله ، والإيمان بالآخرة ، فى غير عناء ولا التواء .

ثم يثنى بوعد قاطع من الله للذين جاهدوا فى سبيله ، وثبتوا على الأذى وقاموا بتكاليف الدعوة ، أن يعوضهم من ذلك كله ثوابا حسنا والله عنده حسن الثواب . بينما الذين كفروا يتمتعون قليلا فى الدنيا ومأواهم جهنم وبئس المهاد . مهما كان لهم من السلطة والمظهر والحركة الدائبة فى التجارة وسائر مظاهر الحياة .

ويستثنى من هذا المصير فريقا من أهل الكتاب مؤمنين خاشعين لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا كأولئك الذين سبق ذكرهم فى سياق السورة .

وينتهى بدعوة الذين آمنوا إلى الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى .. فى نهاية المطاف .. إنه ختام يناسب جو السورة كلها. فلنلق نظرة تفصيلية على ذلك الختام ..

* * *

« إن فى خلق السماوات الأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعوداوعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض : ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك ! فقنا عذاب النار ... »

ماالآيات التى فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ؟ ماالآيات التى يطلع عليها أولو الألباب عندما يتفكرون فيها ؟ وما علاقة التفكر فى هذه الآيات بذكرهم الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ؟ وكيف ينتهون من التفكير فيها إلى ذلك الدعاء الخاشع الواجف : « فقنا عذاب النار ... » إلى نهاية ذلك الدعاء ؟

إن التعبير هنا يرسم صورة حية من الاستقبال السليم للمؤثرات الكونية فى الإدراك السليم .

وصورة حية من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار بالليل والنهار .

ومتى توجه الإدراك الإنسانى فى صدق وإخلاص وحساسية لتأمل الآيات الكونية التى تحيط به فى الطبيعة ، فإنه يستقبل تلك المؤثرات فى يسر ، ويستجيب لها فى طواعية ..

والسياق يقرن بين العبادة الخاشعة الهادئة المستغرقة :

« الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » ..

وبين التفكر فى خلق السماوات والأرض :

« ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك » ..

فيسلك هذا التفكر مسلك العبادة . كما يرسم صورة للحظة . الاستقبال والاستجابة .

فهذه الصورة تمثل صفاء القلب ، وشفافية الروح ، وتفتح الإدراك واستعداده لتلقى الآيات الكونية الكامنة فى هذا الوجود .. إن لحظة العبادة على ذلك النحو هى لحظة اتصال ؛ ولحظة استقبال . فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر ، وأن يكون مجرد التفكر فى خلق السماوات والأرض ملهما للحقيقة الإلهية الكامنة فيها ، ولإدراك أنهما لم تخلقا عبثا ولا باطلا .

إن لهذا الكون حقيقة .. فليس هو خداع حواس – كما يقول بعض الفلاسفة من الناس ! – فهو موجود . وهو يسير وفق ناموس . فليس متروكا للفوضى . وهو يمضى لغاية فليس متروكا للمصادفة . وقد خلق لغرض فلم يكن لهوا :

« ربنا ما خلقت هذا باطلا . سبحانك » ..

وأصحاب الألباب . أصحاب الإدراك . يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية . ولا يقيمون الحواجز ، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات . ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، فتتفتح بصائرهم وتشف مداركهم ، وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله إياه ، وتدرك غاية وجوده وعلة نشأته بالإلهام الذى يصل بين القلب البشرى ونواميس هذا الوجود .

ومشهد السماوات والأرض ، ومشهد اختلاف الليل والنهار ، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا . لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة ، لارتعشت له رؤانا ، ولاهتزت له مشاعرنا ، ولأحسسنا أن وراء مافيه من تناسق لابد من يدتنسق ، ووراء مافيه من

نظام ، لابد من عقل يدبر ، ووراء مافيه من إحكام لابد من ناموس يتحكم . وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعا ، ولا يمكن أن يكون جزافا ، ولا يمكن أن يكون باطلا .

ولا ينقص من اهتزازنا للمشهد الكونى الرائع أن نعرف أن الليل والنهار ناشئان من دورة الأرض حول الشمس . ولا أن تناسق الأرض والسماوات مرتكز على الجاذبية أو غير الجاذبية .. هذه فروض عقلية لا تقدم ولا تؤخر فى استقبال هذه العجيبة الكونية ، والنواميس الهائلةالتى تسير على وفقها ، وتحفظ بمقتضاها . وهذه النواميس هى آية القدرة ، وآية الحق فى خلق السماوات والأرض . وأنها لم تخلق عبثا ولم تترك سدى .

والسياق يصور خطوات الحركة النفسية التى ينشئها مشهد السماوات والأرض ومشهد اختلاف الليل والنهار فى مشاعر ذوى الألباب .. إنهم بمجرد التفكر واستقبال الآيات الكونية تتوجه أرواحهم إلى الله بالتسبيح فى ارتعاشة وجدانية ينبعث عنها دعاء خافق واجف مرتاع :

« ربنا ماخلقت هذا باطلا . سبحانك . فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان : أن آمنوا بربكم ، فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة . إنك لاتخلف الميعاد »

فما العلاقة الوجدانية بين إدراك ما فى خلق السماوات والأرض من حق ، وبين هذه الارتعاشة المنطلقة بالدعاء ؟

إن إدراك الحق الذى فى خلق هذا الكون معناه ــ فى تلك البصائر المدركة ــ أن هناك غاية ، وأن هناك سننا لا تتخلف ، وأن هناك جزاء على اتباع هذه السنن وعلى الحيدة عنها .. لذلك تقفز إلى مخيلاتهم صورة النار ، فيكون الدعاء إلى الله أن يقيهم منها هو الخاطر الأول المصاحب لإدراك الحق الكامن فى هذا الوجود .. وهذه لفتة عجيبة فى التعبير القرآنى لتداعى المشاعر عند ذوى البصائر .. ثم تنطلق ألسنتهم بهذا الدعاء الطويل الخاشع الواجف الراجف ، ذى النغم العذب والموسيقى المنسابة ، والحرارة البادية فى المقاطع والأنغام .

ولابد من وقفة أمام هذا الدعاء : لابد من وقفة أمام قولهم فيه : « ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته » وقولهم : « ولاتخزنا يوم القيامة » .. إن خشيتهم للنار إنما هى خشية من الخزى الذى يصيب أهل النار . وهذه الارتعاشة التى تصيبهم تصيبهم حياء من الخزى الذى ينال أهل النار . فهى ارتعاشة منشؤها الحياء من الله أكثر من لذع النار .

ولابد من وقفة أخرى أمام هذا الدعاء . .

إن كل سورة من سور القرآن تغلب فيها قافية معينة للآيات . والقوافى فى القرآن غيرها فى الشعر . فهى ليست حرفا متحدا ولكنها مد متشابه مثل : « بصير . حكيم . مبين . مريب » أو « الألباب . الأبصار . النار . قرار » أو « خفيا . شقيا . شرقيا . شيئا » .

وتغلب القافية الأولى فى مواضع التقرير ، والثانية فى مواضع الدعاء ، والثالثة فى مواضع الحكاية . .

وسورة آل عمران تغلب فيها القافية الأولى . ولم تبعد عنها إلا فى موضعين : أولهما فى أوائل السورة . وفيه دعاء . والثانى هنا عند هذا الدعاء الجديد .

وذلك من بدائع التناسق الفنى فى تعبير القرآن .. فهذا المد يمنح الدعاء رنة رخية ، وعذوبة صوتية ، تناسب جو الدعاء المنغم المرتل .

هذه ظاهرة فنية نسجلها . وهناك ظاهرة أخرى ..

إن عرض هذا المشهد . مشهد التفكر والتدبر فى خلق السماوات والأرض ، يناسبه دعاء خاشع مرتل طويل النغم ، عميق النبرات ، فيطول عرض المشهد على الخيال والأسماع . فيؤثر فى الوجدان ، بما فيه من خشوع وتنغيم وتوجه وارتجاف .. وهنا طال المشهد بعباراته ، وطال بنغماته .. ثم طال بالرد عليه والاستجابة له :

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ـ بعضكم من بعض ـ فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب .. لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله . وما عند الله خير للأبرار »

فمن ذا الذى لاتحدثه نفسه فى أثناء هذا المشهد الطويل الثابت ، الذى يبدأ بالتفكر فى خلق السماوات والأرض ، وبذلك الدعاء الفائض بالخشوع والخضوع ، الحافل بالتأثر العميق . وينتهى بذلك الرد العظيم ، المفصل لتضحيات المؤمنين ، وللجزاء الذى ينتظرهم يوم الدين . والجزاء الذى ينتظر غيرهم من الكافرين . . من ذا الذى لاتحدثه نفسه أن يسلك نفسه فى موكب أولى الألباب هؤلاء ، يدعو دعاءهم الخاشع ، وينال جزاءهم العظيم ؟

***

فإذا انتهى المشهد الواجف بالاستجابة المطمئنة عاد السياق إلى أهل الكتاب يقرر أن فريقا منهم يؤمن إيمان المسلمين . وقد انضم إلى موكبهم . ويذكر من صفات هذا الفريق الخشوع لله . ليتسق هذا مع المشهد السابق وكله خشوع . كما يذكر أنهم لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا كإخوانهم الذين ذكروا من قبل . وتنسيقا للجو . جو الشراء والبيع . يذكر أنهم سيوفون أجورهم دون إبطاء ، وأن الله سريع الحساب :

« وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم ، وما أنزل إليهم ، خاشعين لله ، لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا . أولئك لهم أجرهم عند ربهم . إن الله سريع الحساب »

ذلك لتصفية الحساب فى السورة كلها مع أهل الكتاب قبل الختام : فمنهم ذلك الفريق المنحرف الذى انحاز إلى موكب الكفر . ومنهم هذا الفريق المؤمن الذى انحاز إلى موكب الإيمان . .

* * *

ثم يجىء الختام . . فيتوجه السياق إلى المؤمنين أن يصبروا على تكاليف الدعوة . وأن يصابروا من يكافحونهم من أعدائها ، فلا يتزحزحوا من قريب . وأن يرابطوا فى الثغور وغير الثغور من مواطن الهجوم والدفاع . وأن يتقوا الله فى ذلك كله ، لايخرجهم اضطهاد الأعداء لهم عن الحق والعدل ، ولا تخرجهم البأساء والضراء عن الصبر والثقة ، ولا يخرجهم النصر والغنيمة عن التواضع لله ورجاء الآخرة . كالربيين الذين قاتلوا مع أنبيائهم من قبل . وعرضت السورة صورة من أدبهم مع الله فى ساعة العسرة والتضحية :

« ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . .

إنه ختام يتناسق مع جو السورة كلها ، ويلخص توجيهاتها ويقرر اتجاهها . .

سُورَةُ النِّسَاءِ مَدَنِيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ١٧٦ نزلت بعد الممتحنة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا * وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا * وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا * وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا ، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا .

« لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ ، مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

« وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .

« يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ . فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ . وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ . وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ . إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ـ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ـ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ـ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ـ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ـ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ـ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ـ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ـ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ـ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ـ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ ، وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ . فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ـ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ـ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ .

« تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ » .

هذه السورة ــ سورة النساء ــ أحسب أنها سميت كذلك لأنها تضمنت تقرير حقوق أساسية للنساء ، بل إنشاء هذه الحقوق إنشاء ، مما سيأتى بيانه فى ثنايا استعراضنا لهذه السورة .

وليست السورة كلها مقصورة على هــذا الموضوع الذى أخــذت اسمها منه . فإنها تشمل موضوعات أخرى فى محيط أوسع من علاقة الرجال والنساء ، ومن علاقات الأسرة عامة ؛ ولكن المحور الذى تدور عليه هذه الموضوعات كلها هو تنظيم علاقات بنى الإنسان ، تارة بينهم وبين خالقهم ــ سبحانه ــ وتارة بين بعضهم البعض . أفراداً وجماعات ، وعقائد وديانات ، وشعوبا ودولات .. وهناك سمة بارزة فى هذه العلاقات . سمة التكافل والتعاون والتضامن ، حتى حين تدعو بعض الآيات إلى الجهاد ، وتحرض على القتال .. فالقتال الذى يحرض عليه هنا إنما شرع لدفع الأذى والظلم عن الضعفاء الذين لا يملكون عن أنفسهم دفاعا .

هذه الروح تسود السورة كلها ، وتبرز فى كل توجيهاتها وتشريعاتها .. ومن ثم كان بدؤها ذلك البدء الموحى بوحدة الخالق ، ووحدة الخلق ، وباستجاشة المشاعر الإنسانية التى تربط بين بنى البشر جميعا ، ثم التى تربط بين أفراد الأسرة الواحــدة . . الأولى لأن السورة تضم أحــكاما كثيرة لتنظيم الروابط العامة ؛ والثانية لأنها تضم كذلك أحكاما كثيرة لتنظيم روابط الأسرة الواحدة .. وبخاصة كفالة الضعاف فى الأسرة أو فى البشرية ، وحمايتهم ورعايتهم فى كنف الجماعة .

فلنسر مع السورة منذ افتتاحها بهــذا النداء الذى يخاطب الناس بإنسانيتهم ، ويستجيش وجداناتهم بما بينهم وبين ربهم من صلة . وبما بينهم وبين ذوى أرحامهم من وشيجة . ..

* * *

« ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ؛ واتقوا الله الذى تساءلون به ، والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا » ..

إنه افتتاح موح مثير لشتى العواطف وشتى الانفعالات . افتتاح يستجيش أعماق المشاعر الدينية والإنسانية والعائلية جميعا .

الخطاب : « ياأيها الناس » .. فهو خطاب لهذا المعنى فى نفوسهم . خطاب للمعنى الإنسانى الذى يشمل الناس جميعا ، ويؤلف بين الناس جميعا ، ويميز جنسهم كذلك عن بقيــة الأحياء والــكائنات .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم » .. فهي استجاشة لشعور التقوى بالإشارة إلى صلة الربوبية بين الناس ورب الناس .. والتقوى هي ذلك الشعور اللطيف العميق ، الذي يرهف المشاعر والقلوب ؛ فإذا هي على استعداد للتلبية والطاعة والتطوع والاتصال .

« اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » .. فهي الوحدة في الرب الخالق ، والوحدة في الإنسانية التي بدأت «من نفس واحدة»..هكذا «من نفس» . فالنفس هي قوام هذا الجنس ، وهي أعمق ما في هذا الكيان ، وهي أرق ما في هذه البشرية ، وهي مكمن المشاعر والوجدانات والروابط والصلات . فإذا كان الناس جميعا يلتقون في هذه النفس الواحدة ، التي تلتقي في الخالق الواحد ؛ فهي إذن صلة عميقة الجذور بعيدة الأصول ؛ وهي إذن صلة لا تنفصم ولا تنقطع ، وهي إذن صلة عزيزة كريمة تستجاش بها الضمائر ، وتلمس بها الوجدانات .

«خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها» .. فالوشيجة التي تربط بين المرء وزوجه هي أقرب من رابطة الزواج وأوثق . إنها علاقة البضعة من الجسم ووشيجة اللحم والدم .. تصور هكذا محسوسة : « خلق منها زوجها » وإن كان المقصود هو وحدة الطبيعة الإنسانية في الزوجين : الذكر والأنثى ، لأن الحديث كان عن « النفس » فنوع الصلة مشتق من خصائص النفس ، ولكن تصورها هكذا محسوسة ، كأن الزوج قد اشتق من الزوج . يلقى ظلا أعمق وشعورا أقوى بعمق هذه الصلة وتوثقها (١) .

« وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء» .. فالناس إذن كلهم أسرة واحدة ، يتصلون بهذه الآصرة ، وتضمهم رحم واحدة .

وحين يصل السياق إلى استجاشة مشاعر الناس بهذه اللمسات الموحية ، يناشدهم الله الذي خلقهم ، ويناشدهم الرحم التي تجمعهم . يناشدهم أن يتقوا الله الذي يسأل به بعضهم بعضا ، وأن يتقوا الأرحام التي بثتهم في الأرض جميعا :

« واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » .. وتقوى الله مفهومة ومعهودة . أما تقوى

---

(١) ليس في النص ما يحتم أن تكون النفس هي آدم ، والزوج هي حواء ، وأن تكون حواء قد خلقت من ضلع آدم .. إلى آخر هذه التصورات التي جاءتنا من أساطير « العهد القديم » فكلمة الزوج تطلق على كلا الزوجين والمقصود هو الجنسان لا الفردان .. أما الأحاديث التي ورد فيها خلق المرأة من ضلع أعوج فهي تعبر على طريق المجاز للإيضاح والتمثيل .

الأرحام فهى تعبير عجيب ، يلقى ظله الشعورى فى النفس ، ثم لايجد المرء مايشرح به ذلك الظل ! . .اتقوا هذه الأرحام .. أرهفوا مشاعركم للإحساس بحقها ، وتوقى هضمها ، والتحرج من خدشها ومسها . . توقوا أن تؤذوها وأن تجرحوها وأن تغضبوها . أرهفوا حساسيتكم بها وتوقيركم لها ، وحنينكم إلى نداها وظلها . .

ثم ينتهى ذلك الافتتاح المؤثر الوحى القوى بإيحاء آخر يتعلق بتقوى الله التى ذكرهم بها آنفا . فيعمق هذه التقوى ، ويضيف إلى أسبابها سببا فيه معنى التنبيه والتحذير :

« إن الله كان عليكم رقيبا » . . فهو بانتظار ماتفعلون بعد هذا النداء المؤثر العميق . والرقابة أقصى درجات الملاحظة . والله هو الذى يراقب . وهو العليم بالظواهر والسرائر . فياله من تحذير !

* * *

من هذا الافتتاح القوى المؤثر يبدأ ببيان تكاليف التكافل فى حياة الأسرة وفى حياة الجماعة . يبدأ فيأمر الأوصياء على اليتامى أن يردوا إليهم أموالهم كاملة سالمة متى بلغوا سن الرشد وألا ينكحوا القاصرات اللواتى تحت وصايتهن طمعاً فى أموالهن . أما السفهاء الذين يخشى من إتلافهم للمال إذا هم تسلموه ، فلا يعطى لهم المال . لأنه فى حقيقته مال الجماعة فلا يجوز أن تسلمه لمن يفسد فيه . فلنتتبع هذه الأحكام بالتفصيل :

« وآتوا اليتامى أموالهم . ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب . ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً »

أعطوا اليتامى أموالهم التى تحت أيديكم ـ متى أصبحوا راشدين قادرين على التصرف فيها . ولا تعطوهم الردىء فى مقابل الجيد . كأن تأخذوا أرضهم الجيدة وتعوضوهم عنها أرضا رديئة ، أو ماشيتهم ، أو أسهمهم ، أو أى نوع من أنواع المال فيه الجيد وفيه الردىء . وكذلك لا تأكلوا أموالهم بضمها إلى أموالكم كلها أو بعضها . . إن ذلك كان ذنباً عظيما . وجزاء الذنوب معروف . والله عليكم رقيب .

« وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ـ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم. ذلك أدنى ألا تعولوا »

إن خفتم ألا تعدلوا فى نكاح اليتيمات اللواتى تحت وصايتكم . كأن يكون الدافع لكم على الزواج بهن هو الطمع فى مالهن ، لا الحب والمودة والرغبة فى معاشرتهن . أو كأن تكون فوارق السن بينكم وبينهن كبيرة . أو كأن تهضموهن حقوقهن فى مهر أمثالهن .. وفى الأولى ظلم لهن بحرمانهن مودة القلب ، واحترام الزوجية ، وحقوق العشرة . وفى الثانية ظلم بعدم التكافؤ الشعورى والحيوى بينكم وبينهن . وفى الثالثة ظلم بنقص حقوقهن المادية والأدبية كأترابهن .. إن خفتم ألا تعدلوا فى اليتيمات فاطلبوا الزواج فى سواهن من النساء .

وبمناسبة الحديث عن الزواج امتد السياق إلى بيان حدود المباح من الزوجات فإذا هو : « مثنى وثلاث ورباع » ولكن بشرط العدل بينهن . العدل فى المعاملة وفى الحقوق الظاهرة . أما العدل فى الشعور الباطن فلا قبل به لإنسان ولا تكليف به لإنسان ، ما اتقى إظهاره فى المعاملة وتأثيره على الحقوق المتعادلة . فإن وجد فى نفسه ضعفا عن ذلك العدل ، وخاف ألا يقدر على تحقيقه ، فالحلال واحدة فقط . وما سواها محظور : « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .. والنص الشرطى يحتم هذا المعنى هنا ، ويعلله بأن ذلك ، أى التحديد بواحدة فى هذه الحالة ، أقرب إلى اجتناب الظلم والجور ؛ ذلك أدنى ألا تعولوا [١] والظلم حرام ، فالوسيلة إليه حرام . واجتناب الظلم واجب ، فالوسيلة إليه واجبة . والوسيلة إليه هنا هى التعدد ، والوسيلة إلى اجتنابه هى التوحد .

ولست بهذا أميل إلى التضييق فى تعدد الزوجات . إنما أنا أستقرىء النص القرآنى معانيه ومراميه . إن التعدد فى أصله رخصة . وهى رخصة ضرورية لحياة الجماعة فى حالات كثيرة . وهى صمام أمن فى هذه الحالات ، ووقاية ليس فى وسع البشرية الاستغناء عنها . ولم تجد البشرية حتى اليوم حلا أفضل منها . سواء فى حالة اختلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث عقب الحروب والأوبئة التى تجعل عدد الإناث فى الأمة أحيانا ثلاثة أمثال عدد الذكور . أو فى حالات مرض الزوجة أو عقمها ورغبة الزوج فى الإبقاء عليها أو حاجتها هى إليه . أو فى الحالات التى توجد فى الرجل طاقة حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجة . أو لا تجد كفايتها فى زوجة واحدة .. وكلها حالات فطرية وواقعية لا سبيل إلى تجاهلها . وكل حل فيها غير تعدد الزوجات يفضى إلى عواقب أوخم خلقيا واجتماعيا . فالتعدد ضرورة تواجه ضرورة . ومع

---

(١) أى تجوروا .

هذا فهى مقيدة فى الإسلام باستطاعة العدل فى الحدود التى بيناها . وهـو أقصى مايمكن من الاحتياط (١)

« فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملـكت أيمانكم » .. فإما واحدة من الحرائر . وإما ما ملـكت أيمانـكم من إماء .

ولقد سبق أن وقفنا فى الجزء الثانى من هذه الظلال وقفة قصيرة أمام مسألة الرق إجمالا ، فلعله يحسن أن نلم هنا بمسألة التسرى بالإماء .

إن الزواج من أمة لايحتاج إلى القول بأنه رد لاعتبارها وكرامتها الإنسانية . فأما التسرى ففيه إهانة لآدميتها مافى ذلك شك أيضا .

ولـكن الضرورة التى أباحت استرقاق الأسرى ـ والتى عرضناها هناك ـ هى ذاتها التى اقتضت إباحة التسرى ، لأن مصير المسلمات حين يؤسرن كان كذلك بل هو شر من ذلك . فهى المعاملة بالمثل إذن ، حتى يمكن الاتفاق على نظام لأسرى الحرب خير من ذلك النظام الذى كان يسود العالم يومذاك .

على أنه يحسن ألا ننسى أن هؤلاء الأسيرات المسترقات لهن مطالب فطرية ، يحسب حسابها فى حياتهن . فإما أن تتم عن طريق الزواج ـ حين يتحررن ـ وإما أن تتم عن طريق التسرى مادام نظام استرقاق الأسرى بضروراته قائما .

أما ماحدث فى أيام بنى أمية وبنى العباس ومن بعدهم ، من تلك الحيوانية الشهوانية ، حيث كانت القصور تزدحم بالجوارى والسرارى ، عن طريق الشراء . فقد لعبت فيه النخاسة دورا هاما . والإسلام برىء منه ، وهو مخالف لروح الشريعة بلا جدال .

« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة (٢) فإن طبن لـكم عن شىء منـه نفسا ، فكلوه هنيئاً مريئاً » ..

وهو استطراد آخر فى مسألة الزواج ، يحـدد فيه حق المرأة فى صداقها ، فيجب أن تعطى هذا الصداق وتقبضه . فإذا شاءت أن تنزل عن شىء منه بعد قبضه عن طيب نفس ، فهو عندئذ فقط حلال للزوج هنىء مرىء .

(١) يراجع بتوسع فى هذه المسألة فصل « سلام البيت » من كتاب : « السلام العالمى والإسلام » .
(٢) ملكا خالصا منحولا لها مسلما ليدها .

وحكمة قبضه كاملا ـ قبل التنازل عن شيء منه ـ هو تمكينها من حقها ، حتى إذا ردت منه جزءا ردته عن رضى حقيقى ، وعن اختيار كامل . أما لو تركت منه هذا الجزء قبل قبضه فربما كانت هناك شبهة اضطرار ، فى أنها تنزل عن جزء لتحصل على البقية . . والعلاقات بين الزوجين يجب أن تقوم على رضى كامل ، واختيار مطلق ، وسماحة نابعة من القلب ، زائدة على الفريضة .

فإذا انتهى من هذ الاستطراد عاد إلى أموال اليتامى ، يفصل فى أحكام ردها إليهم ، بعد أن قرر فى الآية الأولى مبدأ الرد على وجه الإجمال . .

إن هذا المال ولو أنه مال اليتامى . إلا أنه قبل هذا مال الجماعة . أعطاه الله لها لتقوم به . فالجماعة هى المالكة الأولى للمال . واليتامى أو مورثوهم إنما يملكون حق الانتفاع بهذا المال ماداموا عليه أمناء ، وماداموا قادرين على تدبيره وتثميره . أما السفهاء الذين لايحسنون التصرف ، فهم محرومون من هذا التصرف ، الذى يعود فى هذه الحالة إلى من يحسن التصرف فيه من الجماعة ، مع مراعاة درجة القرابة لليتيم ، تحقيقا للتكافل العائلى ، الذى هو جزء من التكافل العام ، وللسفيه حقه فى الرزق والكسوة وحسن المعاملة :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا » .

ويتبين السفه وعدمه بالاختبار بعد البلوغ ، فمتى تبين الرشد فليسارع الأوصياء بدفع المال إلى أصحابه ؛ وليحذروا أن يأكلوه بأن يأخذوا منه فى مقابل الوصاية فوق حاجتهم . إن كانوا فقراء. ليحصلوا على أكبر قسط قبل أن يكبر اليتامى ! أما الغنى فيجب أن يعف عن مال اليتيم ، وألا يأخذ أجرا على القوامة . ومنعا للشبهة فقد حتم الإشهاد على تسليم المال لليتامى :

« وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم . ولا تأكلوها ـ إسرافا وبدارا أن يكبروا ـ ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم »

ثم يختم الآية بخاتمة قرآنية تربط القلوب بالله ، وتذكرها خشية الله على طريقة القرآن . وتتضمن هنا معنى المحاسبة والجزاء ، فى صدد الحساب والوفاء : « وكفى بالله حسيبا » . .

* * *

ولقد كانوا فى الجاهلية لايورثون البنات ، ولا الصبية . . لأن هؤلاء وهؤلاء لايركبون فرسا ، ولايردون عاديا ! فإذا شريعة الله تجعل الميراث فى أصله حقا لذوى القربى جميعا ـ حسب مراتبهم وأنصبتهم المبينة فيما بعد ـ وذلك تمشيا مع نظرية الإسلام الأساسية فى التكافل الاجتماعى ، وحسب قاعدة الغنم بالغرم . فما دام القريب مكلفا إعالة قريبه إذاافتقر ، فعدل إذن أن يرثه إن ترك مالا ، بحسب درجة قرابته وتكليفه به .

هذه هى القاعدة فى الإرث بصفة عامة . . ولقد نسمع فى هذه الأيام لغطا كثيرا حول مبدأ الإرث . ولكن إدراك الأسس التى يقوم عليها النظام الاجتماعى الإسلامى تضع حدا لهذا اللغط . . إن قاعدة هذا النظام هى التكافل . . ولكى يقوم هذا التكافل على أسس وطيدة راعى الإسلام أن يقوم على أساس الميول الفطرية الثابتة فى النفس البشرية . ولما كانت روابط الأسرة ـ القريبة ثم البعيدة ـ روابط فطرية حقيقية لاتقبل المراء ، فلقد جعل التكافل فى محيط الأسرة فى مقدمة خطوات التكافل الاجتماعى العام . فإذا عجزت هذه الخطوة أوقصرت ، جاءت الخطوة التالية فى محيط الجماعة المحلية المتعارفة لتكملها . فإذا عجزت هذه جاء دور الدولة لتتولى كل من قصرت دون إعالتهم وكفالتهم الكاملة جهود الأسرة وجهود الجماعة المحدودة . وبذلك لا يلقى العبء كله على عاتق الجهاز الحكومى . . أولا لأن التنظيمات الصغيرة والمحلية أقدر على تلبية الحاجات بسرعة وبدقة فى محيطها ، من الجهاز الحكومى الضخم . وثانيا لأن التكافل فى محيط الأسرة أو فى محيط الجماعة الصغيرة يخلق مشاعر لطيفة رحيمة ، تنمو حولها فضائل التعاون نموا طبيعيا غير مصطنع . وثالثا لأن التكافل فى محيط الأسرة بخاصة ينشىء آثارا طبيعية تلائم الفطرة . فشعور الفرد بأن جهده الشخصى سيعود أثره على ذوى قرابته وبخاصة ذريته ، يحفزه إلى مضاعفة الجهد ، فيكون نتاجه للجماعة ، لأن الإسلام لايقيم الفواصل بين الفرد والجماعة ، فكل ما يملك الفرد هو فى النهاية ملك للجماعة كلها بقدر ما تحتاج . . وهذه القاعدة الأخيرة تقضى على كل الاعتراضات السطحية فى توريث من لم يتعب ولم يبذل جهداً . . فهذا الوارث هوامتداد للمورث من جهة ، ثم هو كافل لهذا المورث لوكان محتاجا . . ثم فى النهاية هو وما يملك للجماعة فى وقت حاجتها تمشيا مع قاعدة التكافل العام .

هـذا بالاختصار مايقال عن مبدأ الإرث فى ذاته نكتفى به هنا[1] . أما نظام التوريث فسيرد بعد قليـل :

« للرجال نصيب مماترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مماترك الوالدان والأقربون ـ مما قل منه أو كثر ـ نصيبا مفروضا »

هذا هو المبدأ العام الذى أعطى الإسلام به المرأة منذ أربعة عشر قرنا حق الإرث كالرجل من ناحية المبدأ . كما حفظ به حقوق الصغار الذين كانت الجاهلية لاتعرفها لهم . لأن الجاهلية كانت تنظر إلى الأفراد حسب قيمتهم العملية فى الحرب والإنتاج . أما الإسلام فجاء بمبدئه الإنسانى الذى ينظر إلى الأفراد حسب قيمتهم الإنسانية أولا ، ثم حسب تكاليفهم العائلية والاجتماعية أخيرا .

ولما كان نظام التوريث ـ كما سيجىء ـ يحجب فيه بعض ذوى القربى بعضا ، فيوجد ذووقرابة ولكنهم لا يرثون ، لأن من هم أقرب منهم سبقوهم فحجبوهم . فإن السياق يقرر للمحجوبين حقا غير محدد ـ إذا هم حضروا قسمة التركة ـ تطييبا لخاطرهم ، واحتفاظا بالروابط العائلية والمودات القلبية . . كذلك يقرر لليتامى والمساكين مثل هذا الحق ـ تمشيا مع قاعدة التكافل العام خطوة أخرى فى محيط الجماعة ـ :

« وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، فارزقوهم منه ، وقولوا لهم قولا معروفا » .

* * *

وقبل أن يأخذ السياق فى تحديد أنصبة الورثة ، يعود ليحذر من أكل أموال اليتامى . . يعود إليه فى هذه المرة ليلمس الوجدان لمستين قويتين : أولاهما تمس مكمن الرحمة الأبوية والإشفاق الفطرى على الذرية الضعاف . والثانية تمس مكان الرهبة من النار والخوف من السعير فى مشهد حسى مفزع :

(١) يراجع هذا الموضوع فى كتاب العدالة الاجتماعية فى الإسلام : فصل « سياسة المال » .

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا »

وهكذا تمس اللمسة الأولى شغاف القلوب . قلوب الآباء المرهفة الحساسية ، بتصور ذريتهم الضعاف مكسورى الجناح ، لا راحم لهم ولا عاصم ، كى يعطفهم هذا على اليتامى الذين وكلت إليهم أقدارهم بعد أن فقدوا الآباء . فهم لايدرون أن تكون ذريتهم غدا موكولة إلى غيرهم من الأحياء .

أما اللمسة الثانية فهى صورة حسية مفزعة . صورة النار فى البطون . وصورة السعير فى النهاية . . إن هذا المال ـ مال اليتيم ـ لهو نار . وإنهم ليأكلون هذه النار ! وإن مصيرهم لإلى السعير . فهى النار إذن تشوى البطون والجلود . هى النار إذن من باطن وظاهر . . هى النار مجسمة فى هذا المشهد تكاد تحسها البطون وتكاد تراها الأبصار . . . !

***

والآن نجىء إلى نظام التوارث . حيث يبدأ بتقرير المبدأ العام : « للذكر مثل حظ الأنثيين » ثم يأخذ فى التفريع ، وتوزيع الأنصبة فى ظل هذا المبدأ العام ، الذى ينطبق تماما كلما اتحدت الدرجة .. ويستغرق هذا التفصيل آيتين : أولاهما خاصة بالمواريث من الأصول والفروع ، والثانية خاصة بحالات الزوجية والكلالة ..

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ـ إن كان له ولد ـ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس ، من بعد وصية يوصى بها أودين . آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا . فريضة من الله . إن الله كان عليما حكيما » .

« ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أودين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أودين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء

فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أودين . غير مضار ، وصية من الله ، والله عليم حليم » .

هذا النظام الإسلامى فى التوريث هوأعدل نظام عرفته البشرية .. يبدو ذلك حين نوازنه بالنظم التى تجعل الميراث كله للابن الأكبر ، أو التى تجعل الميراث كله للرجال دون النساء ، أو دونهن ودون الأطفال .

إن النظام الإسلامى يرعى معنى التكافل العائلى كاملا ، فكل ذوى القرابة أصحاب حق فى الإرث ، كما أن عليهم واجب الكفالة عند الحاجة .. وذلك فوق تحقيقه للتكافل فى الأسرة ، يقوم بعملية تفتيت الثروة على رأس كل جيل ، فلا تتكدس الثروة فى يد واحدة بينما الذين حرموا الميراث لايجدون .. ويحقدون ..

وهو يعطى الرجل حسب أعبائه ويعطى المرأة وفق أعبائها . فليست المسألة مسألة محاباة جنس على حساب جنس . فالرجل يتزوج امرأة فيكلف إعالتها . أما هى فإما أن تقوم بنفسها فقط ، وإما أن يقوم بها رجل عند الزواج . ، فالرجل مكلف أكثر من ضعف تكاليفها فى الحقيقة .

وهو يبدأ بالفروع قبل الأصول . بالأولاد قبل الآباء . لأن الأصول قد يرثون من جهات أخرى ، أو يقوم بهم أبناؤهم الآخرون ، وهم كبار قادرون على الكسب أو شيوخ بقى من حياتهم القليل . أما الذرية فلايرثون إلا من جهة أصولهم غالبا ، وهم عادة صغار ، أوهم يستقبلون حياة ممتدة ذات تكاليف ، فهم أولى بالرعاية .

وهكذا يحقق نظام الإرث الإسلامى أغراضا اجتماعية ، وشعورية ، وعملية ، لايحققها أى نظام آخر من النظم التى عرفتها البشرية . ويتمشى مع الفطرة دون تعسف ، ودون جور ، ودون إهمال للمصالح المتعادلة المتوازنة فى حياة الجماعة البشرية .

وليس هناك ما يدعونا هنــا ـ فى الظلال ـ أن ندخل فى قضايا المواريث . فالنصوص مفهومة . والخلافات فى التطبيق خلافات فقهية لا نتعرض لها .. إنما نقف أمام لفتات تتعلق بالمبادىء العامة التى نتوخاها ..

ـ إن الأب يأخذ السدس كالأم فى حالة وجود ذرية للمتوفى : « ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد » .. كذلك يتحد نصيب الأخ والأخت من الأم فى الكلالة [1]

(١) الميت يورث كلالة : أى لاولد له ولا والد . والكلالة الضعف . وذلك تعبير عن ضعف القرابة لبعدها فى هذه الحالة .

فيكون السدس : « وإن كان رجل يورث كلالةأوامرأة وله أخ أو أخت ، فلكل واحد منهما السدس » ـ ومفهوم أنهما من الأم فلوكانا من الأب أو شقيقين لورثا بالتعصيب كل الثروة بعد أصحاب الفروض ـ وفي كلتا الحالتين يخالف الأصل العام : للذكر مثل حظ الأنثيين ..

إن الحكمة التي اقتضت أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين في حالة الأولاد وفي حالة الزوجين حيث يرث أحدهما الآخر ، لا وجود لها هنا .

ففي حالة الأولاد يكون الإرث الآتي لهما من الوالدين هو المصدر الأساسي لإرثهما بينما للوالدين قد توجد جهات أخرى ومورثون آخرون .. فضلا على أن الإرث العائد عليهما من أولادهما هو فضلة زائدة في حياتهما ، لم تكن منتظرة في حسابهما . فالمنتظر عادة أن يرث الأولاد أبويهم ؛ كما أن الوالد ـ ولو أنه هو العائل لزوجته (الأم) فإنه غير معتمد على هذا الإرث في معيشتهما ، فليس من موجب لأن يعطى ضعف نصيبها . وهما في آخر حياتهما في العادة .

وكذلك الأمر في حالة الأخ والأخت لأم . فإن مصدر إرثهما الرئيسي من ناحية عصبتهما لا من ناحية الرحم . فهما لا يعتمدان على هذا المصدر الأخير حتى يعطى الأخ ضعف نصيب الأخت . أما في إرثهما من ناحية العصب . أي إرثهما لأخ شقيق أو من الأب (١) فللذكر مثل حظ الأنثيين لأنه المورد الرئيسي لهما .

« آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب نفعاً » .. وهي لفتة قرآنية لتطييب النفوس تجاه هذه الفرائض . فهنالك من تدفعهم دفعة الغريزة البحتة إلى إيثار الأبناء على الآباء ، لأن الضعف الفطري تجاه الأبناء أكبر . وفيهم من يغالب هذا الميل بالمشاعر الأدبية الأخلاقية فيميل إلى إيثار الآباء .. وفيهم من يحتار ويتأرجح بين الضعف الفطري والشعور الأخلاقي .. فأراد الله سبحانه أن يسكب في هذه القلوب كلها راحة ورضى بتسليم الأمر كله لله ، ولما يفرضه الله ، وأن يشعرها أن العلم كله لله : « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » فدعوا الأمر لله ، واجعلوا القسمة بيده حسب فرائضه ، واطمئنوا إلى واسع علمه ، وعميق حكمته : « فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما » .

في كل حالة من حالات التوريث قدم الدين والوصية ، للوفاء بالدين ولتنفيذ الوصية قبل التوارث .. والأمر في الدين واضح فهو يتعلق بحق الآخرين ؛ فلابد أن يستوفى من مال

(٢) كما سيرد في آخر آية في هذه السورة في تكملة حكم الكلالة .

المورث الذى استدان ، توفية بحق الدائن ، وتبرئة لذمة المدين . والإسلام يشدد فى إبراء الذمة من الدين ، كى تقوم المعاملات على أساس من الثقة ، ويطمئن الدائنون إلى الوفاء فى الحياة وبعد الموت سواء . وهذا الاطمئنان ضرورى للثقة التى تقوم عليها المعاملات .. وأما الوصية فلأن إرادة المورث تعلقت بهـا لحكمة خاصة . وقد جعلت الوصية لتلافى بعض الحالات التى يحجب فيهـا بعض الورثة بعضا ، وقد يكون المحجوبون معوزين ، أو تكون هناك مصلحة عائلية فى توثيق العلاقات بينهم وبين الورثة . . والوصية لا تكون لوارث ، ولا تكون فى غير الثلث . وفى هذا ضمان ألا يجحف المورث بالورثة فى الوصية .. ومع هذا فإن النص يدعو إلى أن لا يقصد بالوصية الإضرار بالورثة : « غير مضار » ويجعل هذا « وصية من الله » تمشيا مع جو الوصية . ويجعل التعقيب : « والله عليم حليم » لتوكيد أن وصية الله هـذه واجبة الاتباع ، لأنها صادرة من العليم الحـليم .

ثم يجىء التعقيب الأخير على شرعة المواريث :

« تلك حدود الله ؛ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ، ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين » . .

لبيان أن هذه الأحكام للوقوف عندها وتنفيذها كاملة بلا مجاوزة ولا تقصير ، وبلا تبديل ولا تغيير . وجزاء الطاعة فيها هو الخلود فى هذه الجنات تجرى من تحتها الأنهار ، والفوز فى هذه الدنيا بصلاح الذرية والأسرة والمجتمع ، والفوز فى الآخرة بهـذا النعيم . وجزاء عصيانها وتعديها الخلود فى النار . ثم المهانة جزاء على العصيان والتعدى .

وهذه القسمة جاءت فى القرآن مفصلة هكذا ، ثابتة مقررة ، لأن التكافل العائلى أصل من أصول النظام الاجتماعى فى الإسلام ، ولأن التوزيع على هذا النحو يتمشى مع الفطرة الثابتة فى النفس البشرية، فهو دائم إذن لا يحتاج إلى تعديل .

والأحكام التى وردت فى الشريعة مفصلة ومحددة هى الأحكام الخاصة بمثـل هذه الأصول الثابتة فى نظام المجتمع الإسلامى ، القائمة على أصول فطرية ثابتة فى نفس الإنسان ، بغض النظر عن اختلاف المـكان أو اختلاف الزمان .

« وَٱللَّاتِي يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ ، فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ؛ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ ٱلْمَوْتُ ، أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَٱللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا . إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا .

« إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ؛ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ : إِنِّي تُبْتُ ٱلْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ . أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا ٱلنِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ـ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ـ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدْتُمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ ، وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا . أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ؟ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ، وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ؟

« وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ، وَبَنَاتُكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُمْ ، وَعَمَّاتُكُمْ ، وَخَالَاتُكُمْ ، وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ ، وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ، وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ ٱلرَّضَاعَةِ ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ، وَرَبَائِبُكُمُ ٱللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِن نِسَائِكُمُ اللَّاتِي

دَخَلْتُم بِهِنَّ ـ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ـ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ـ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ـ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . . . » .

يتناول هذا الدرس جوانب جديدة فى ميدان التكافل الاجتماعى فى حياة الأسرة وفى حياة الجماعة .

يتناول الجانب الأخلاقى لوقاية المجتمع عاقبة الانحلال الخلق..مرة بالعقوبة ، ومرة بالترغيب فى التوبة وفتح أبوابها لمن أراد ..

ويتناول جانب الحقوق الأدبية والمادية للمرأة لإبطال عادات الجاهلية الجائرة فى حقها .. مرة بالتشريع ، ومرة بالتوجيه الوجدانى المؤثر ..

ويتناول جانبا من جوانب تنظيم الأسرة ببيان المحرمات من النساء .. منهن من كان محرما فى الجاهلية فأقر الإسلام هذا التحريم .ومنهن من كان مباحا فرأى الإسلام تحريمه من جديد..

وكل هذه الجوانب يتمشى مع سياق السورة كلها ومع موضوع الأسرة الذى يشغل منها حيزا كبيرا ..

* * *

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم؛ فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما . إن الله كان توابا رحيما » .

كان هذا فى أول أمر الإسلام .. كانت عقوبة التى تأتى الفاحشة ، ويشهد عليها أربعة شهود رؤية ، أن تمسك فى البيت لا تخرج حتى الوفاة ، عقابا لها ووقاية للمجتمع منها . وأن الرجل والرجل يأتيان الفاحشة شاذة يؤذيان ــ ولم يحدد نوع الإيذاء ولا حده ــ حتى يتوبا ويصلحا..

ولقد عدلت هذه العقوبة فيما بعد وحددت . فلا نتعرض هنا لهذا النص . الذى استقر الأمر فيه على حدود معينة ، سيأتى فيما بعد بيانها فى موضعها .

ونخلص إلى الآيتين التاليتين فى السياق : آيتى التوبة .

« إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ، ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار . أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما » .

ولقد سبق فى هذا الجزء حديث عن التوبة يصلح لهذا الموضع كذلك . ولكن التعبير هنا يزيد معنى جديدا . إن قبول هذه التوبة حق للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب . حق كتبه الله سبحانه على نفسه ، رحمة منه وفضلا ، وهو يقول : « إنما التوبة على الله .. » فهى الرحمة البالغة السابغة التى تجعل التفضل حقا للمتفضل عليهم مكتوبا لهم على خالقهم متى تابوا إليه متطوعين غير مكرهين .

والذين يعملون السوء بجهالة هم الذين يرتكبون الذنوب . وهناك ما يشبه الإجماع على أن الجهالة هنا معناها الضلالة عن الهدى طال أمدها أم قصر ، ما دامت لا تستمر حتى تبلغ الروح الحلقوم .. وهذا تفسير : « ثم يتوبون من قريب » أى قبل أن يتبين لهم الموت . متى تابوا إلى الله وهم يأملون فى امتداد الحياة . فهذه التوبة حينئذ هى توبة الندم ، مع نية العمل الصالح والتكفير . فأما توبة الذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن . فهى توبة المضطر الذى لجت به الغواية ، وأحاطت به الخطيئة ، والذى يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ! وهذه لا يقبلها الله لأنها لا تنشىء صلاحا فى القلب ، ولا صلاحا فى الحياة . والتوبة إنما تقبل لأنها الباب المفتوح الذى يثوب إليه الشاردون ؛ فيستردون أنفسهم من تيه الضلال ، وتستردهم البشرية من حزب الشيطان . ليعملوا فى الحياة عملا صالحا إن قدر لهم امتداد فى العمر ، أو ليعلنوا — على الأقل — انتصار الهداية على الغواية . إن كان الأجل ينتظرهم من حيث لا يشعرون أنه لهم بالوصيد .

أما الذين يموتون وهم كفار .. فأولئك قد قطعوا ما بينهم وبين التوبة ، وقطعوا ما بينهم وبين المغفرة : إن بدا لهم يوم الحساب أن يطلبوا المتاب ، أو أن يطلبوا المآب !

« أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما » .. أحضرناه وأعددناه وهيأناه . فهو فى الانتظار ، فلن تكون مهلة للإعداد والإحضار !!!

* * *

والموضوع الثانى فى هذا الدرس هو موضوع المرأة ..

لقد كان العرب فى جاهليتهم وكانت المجتمعات البشرية الأخرى من حولهم ، تعامل المرأة معاملة سيئة ، ولا تعرف لها حقوقها الإنسانية ، فتنزل بها عن مرتبة الرجل نزولا شنيعا ، يدعها أشبه بالسلعة منها بالإنسان . فجاء الإسلام ليرفع عنها هذا كله، ويردها إلى مكانها الطبيعى فى كيان الأسرة وفى نظام الجماعة البشرية . المكان الذى يتفق مع المبدأ العام الذى قرره مفتتح سورة النساء : « الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » .. ثم ليرفع مستوى المشاعر الإنسانية فى الأسرة ، من المستوى الحيوانى إلى المستوى الإنسانى ، ويظللها بظلال الاحترام والمودة والعاطفة والتجمل .. وليوثق الروابط والوشائج فلا تنقطع عند الصدمة الأولى وعند الانفعال الأول :

« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن [١] لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن — إلا أن يأتين بفاحشة مبينة — وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا ؟ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف . إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا »

كان بعضهم فى الجاهلية إذا مات الرجل منهم فأولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها !

وكان بعضهم إذا توفى عن المرأة زوجها فجاء وليه فألقى عليها ثوبه منعها من الناس ؛ فإن كانت جميلة تزوجها ، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها ! أو تفتدى نفسها منه بمال !

---

(١) تمسكوهن فى البيوت دون تزويج وتضاروهن وتؤذوهن .

وكان بعضهم يطلق المرأة ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد حتى تفتدى نفسها منه بما أعطاها كله أو بعضه !

وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا امرأته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها !

وكان الرجل تكون اليتيمة فى حجره يلى أمرها ، فيحبسها عن الزواج ، رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها، أو يزوجها من ابنه الصغير طمعا فى جمالها أو فى مالها !

وهكذا وهكذا ، مما لا يتفق مع النظرة الإنسانية الكريمة،ومما يهبط بإنسانية المرأة وإنسانية الرجل على السواء . ويحيل العلاقة بين الجنسين علاقة تجار أو علاقة بهائم ..

ومن هذا المستوى الهابط رفع الإسلام تلك العلاقة إلى ذلك المستوى العالى الكريم اللائق بكرامة الآدميين ، الذين كرمهم الله وفضلهم على كثير من العالمين .

حرم الإسلام ذلك العضل ، وجعل للمرأة حريتها الكاملة فى اختيار من تعاشره ابتداء أو استئنافا . وأطلقها من الإمساك بها للإضرار ــ إلا فى حالة الإتيان بالفاحشة ، وذلك قبل أن يتقرر حد الزنا المعروف ــ وجعل العشرة بالمعروف فريضةعلى الرجال . حتى فى حالة الكراهة، ونسم فى هذه الحالة نسمة الرجاء فى غيب الله وفى علم الله . كى لا يطاوع المرء هواه وانفعاله ، فيبت ما بينه وبين زوجه من علاقة . فما يدريه أن هنالك خيرا فيما يكره هو لا يدريه :

« فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .. وهى لمسة وجدانية قوية ، تعلق النفس بالله ، وتهدىء من فورة الغضب ، وتفثأ من حدة الكره ، حتى يعاود الإنسان نفسه فى هدوء ، وحتى لا تكون العلاقة الزوجية ريشة فى مهب الرياح . فهى مربوطة العرى بالعروة الوثقى . العروة الدائمة . العروة التى تربط بين قلب الإنسان وربه ، وهى أوثق العرى وأبقاها .

فإن تبين بعد الصبر والتقدير أن الحياة لا تستطاع ، وأنه لا بد من تلمس حياة جديدة فعندئذ تنطلق المرأة بما أخذت من صداق ، لا يجوز استرداد شىء منه ولو كان قنطارا من ذهب ..

« وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » .

لا تأخذوا منه شيئا ، فليس هنالك وجه من حق لاسترداده ، ولا ريب فى أنه إثم واضح ومستنكر لا شبهة فيه :

« أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟ » .

ومن ثم لمسة وجدانية عميقة ، وظل من ظلال الحياة الزوجية وريف ، فى تعبير موح عجيب :

« وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ؟ » ..

ويدع « أفضى » بلا مفعول . يدع اللفظ مطلقا ، يشع كل معانيه ، ويلقى كل ظلاله . ولا يقف عند حدود الجسد ، بل يشمل العواطف والمشاعر والوجدانات والتصورات ، والتجاوب فى كل صورة من صور التجاوب . يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار .. وفى كل اختلاجة حب إفضاء . وفى كل نظرة ود إفضاء . وفى كل لمسة جسم إفضاء . وفى كل اشتراك فى ألم أو أمل إفضاء. وفى كل تفكير فى حاضر أو مستقبل إفضاء. وفى كل شوق إلى خلف إفضاء . وفى كل التقاء فى طفل إفضاء ..

كل هذا الحشد من التصورات والظلال والأنداء والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الوحى العجيب : « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ؟ فيتضاءل بجانبه ذلك المعنى المادى الصغير ، ويخجل الرجل أن يطلب بعض ما دفع وهو يستعرض فى خياله وفى وجدانه ذلك الحشد من صور الماضى ، فى لحظة الفراق الرهيب .

ثم يضم إلى ذلك الحشد من المشاعر عاملا آخر من نوع آخر ..

« وقد أخذن منكم ميثاقا غليظا » ..

هو الموثق الذى يستحل به الرجل معاشرة المرأة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وما تحل امرأة لرجل فى الإسلام إلا بهذا الميثاق . . الميثاق الغليظ كما يصوره هنا فى صورة حسية ليجسمه ، ويستعظم نقضه وقطعه والنكث به .

وفى النهاية يحرم تحريما باتا أن ينكح الأبناء مانكح آباؤهم من النساء . وقد كان ذلك فى الجاهلية حلالا . وكان سببا من أسباب عضل النساء أحيانا حتى يكبر الصبى فيتزوج امرأة أبيه ، أو إن كان كبيرا تزوجها بالوراثة كما يورث الشىء !

ويبدو من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات ــ وإن كنا نحن البشر لا نحيط بكل علل التشريع ــ أولها أن امرأة الأب فى مكان الأم . والثانى ألا يخلف الابن أباه فيصبح أبوه فى خياله ندا له . وكثيرا ما يكره الزوج زوج امرأته الأول فطرة وطبعا . والثالث ألا تكون

هناك شبهة الإرث لزوجة الأب ، وهو معنى كريه يهبط بإنسانية المرأة والرجل سواء . وهما من نفس واحدة ، وإهانة أحدهما إهانة للآخر بلا مراء .

لهذه الاعتبارات الظاهرة — ولغيرها مما يكون لم يتبين لنا بعد — جعل هذا العمل شنيعا غاية الشناعة . جعله فاحشة . وجعله مقتا أى بغضا وكراهية . وجعل طريقه طريقا سيئا رديئا : إلا ما كان قد سلف منه فى الجاهلية قبل أن يرد التحريم فى الإسلام :

« ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء — إلا ماقد سلف — إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا »

* * *

وبمناسبة تحريم زوجات الآباء يحدد السياق سائر أنواع المحرمات من النساء :

« حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن — فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم — وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلاماقد سلف — إن الله كان غفورا رحيما — والمحصنات من النساء » .

ولم يذكر النص علة للتحريم ، لاعامة ولاخاصة ، فكل مايذكر من علل ، إنما هو استنباط ورأى وتقدير . .

فقد تكون هنالك علة عامة . وقد تكون هنالك علل خاصة لكل صنف . وقد تكون هنالك علل مشتركة بين بعض الأنواع :

وعلى سبيل المثال يقال : إن الزواج من الأقربين فى الدم يضوى الذرية ويضعفها مع امتداد الزمن . لأن مواضع الضعف الوراثية قد تتركز وتتأصل فى الذرية . على عكس ما إذا تركت الفرصة للتلقيح الدائم بدماء أجنبية ، تضاف امتيازاتها ، فتجدد حيوية الأجيال واستعداداتها الجسمية والعقلية .

أو يقال : إن بعض هذه الطبقات المحرمة كالأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات

وبنات الأخ وبنات الأخت والأمهات والأخوات من الرضاعة ، وأمهات النساء وبنات الزوجات ـ وهن الربائب فى الحجور ـ يراد أن تكون العلاقة بها علاقة دائمة لأنها علاقة رعاية وعطف ، أو احترام وتوقير . فلا تترك لما يجد فى الحياة الزوجية من خلافات تؤدى إلى الطلاق والانفصال . فتخدش تلك العواطف التى يراد لها الدوام .

أو يقال : إن بعضها كالربائب اللواتى فى الحجور ، والأخت مع الأخت . . لا يراد خدش المشاعر البنوية أو الأخوية فيها . فالأم التى تحس أن ابنتها قد تزاحمها فى زوجها وكذلك الأخت ، لا تستبقى عاطفتها البريئة المطمئنة تجاه بنتها التى تشاركها الحياة أو أختها التى تتصل بها اتصالا دائما ، فتثير غيرتها ومخاوفها .

أو يقال فى حلائل الأبناء من الأصلاب . . إن العاطفة بين الأب وابنه لا يجوز أن تخدش ، بالغيرة التى تكون بين الزوجين المتعاقبين للمرأة الواحدة .

وأيا ما كانت العلة . فنحن نسلم بأن اختيار الله لا بد له من حكمة ، نعلمها أو نجهلها سواء . ومتى كان النص قاطعا فهو حكم لا تتوقف طاعته على أن نعرف علته . .

أما المحصنات من النساء ـ وهن المتزوجات ـ فالأمر فيهن واضح ، لأنه يتعلق بحماية الحياة الزوجية كلها . والأمر فيها لا يحتاج إلى إيضاح . فالإسلام يقيم نظامه الاجتماعى على أساس الأسرة ويوفر لها كل أنواع الضمانات . . .

[تم الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس
مبدوءا بقوله تعالى : والمحصنات من النساء]

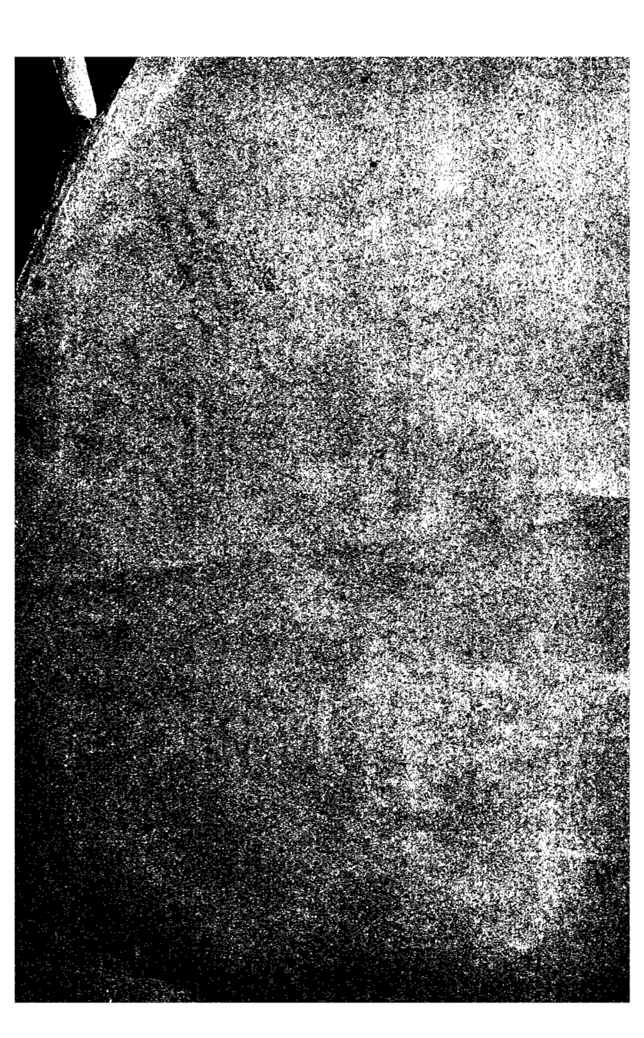
كتب للمؤلف

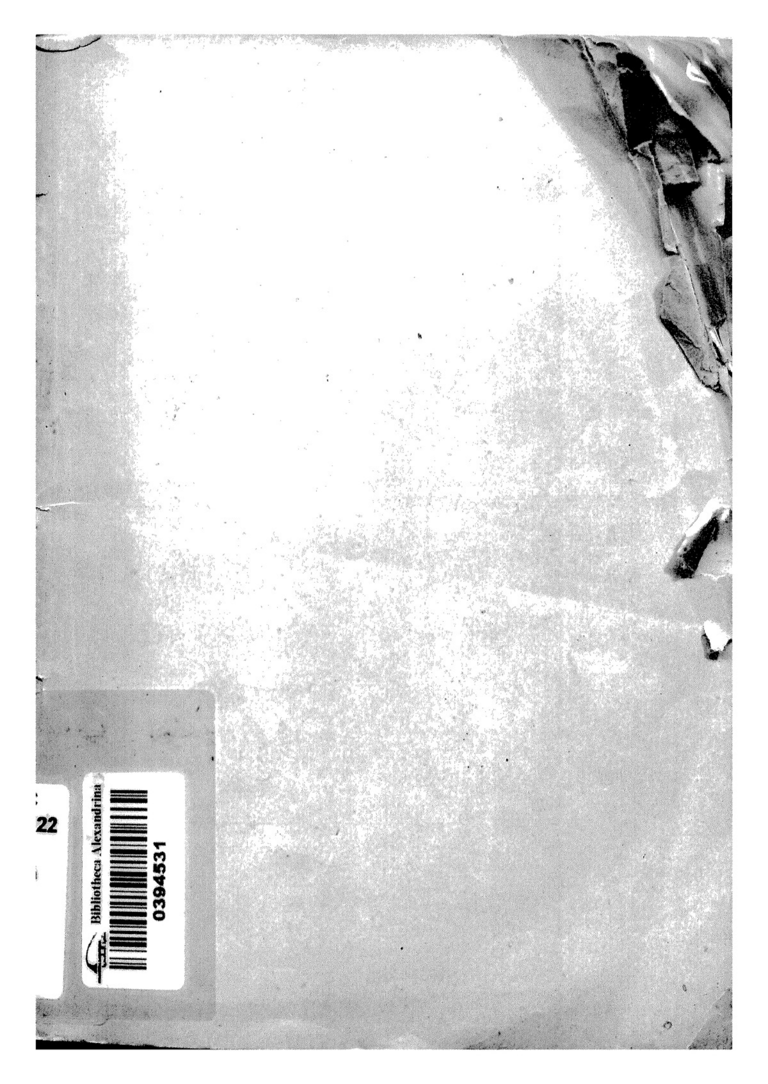
---

١ ــ فى ظلال القرآن (فى ثلاثين جزءاً) دار إحياء الكتب العربية .
٢ ــ العدالة الاجتماعية فى الإسلام (طبعة ثالثة) دار الإخوان للطباعة والصحافة .
٣ ــ معركة الإسلام والرأسمالية (« ثانية) « « « «
٤ ــ السلام العالمى والإسلام (« أولى) مكتبة وهبة شارع إبراهيم بعابدين.
٥ ــ التصوير الفنى فى القرآن (« ثالثة) دار المعارف
٦ ــ مشاهد القيامة فى القرآن (« ثانية) « «
٧ ــ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه (« أولى) دار الفكر العربى
٨ ــ أشواك (« «) دار سعد بالفجالة
٩ ــ طفل من القرية (« «) لجنة النشر للجامعيين
١٠ ــ الأطياف الأربعة (بالاشتراك مع إخوته) « « «
١١ ــ القصص الدينى (بالاشتراك مع الأستاذ السحار) « « «
١٢ ــ الشاطئ المجهول (شعر) . . . نفد
١٣ ــ كتب وشخصيات (نقد) . . . «
١٤ ــ مهمة الشاعر فى الحياة (») . . . «
١٥ ــ نقد كتاب مستقبل الثقافة (») . . . «
١٦ ــ المدينة المسحورة (قصة) . . . «

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى (٢) أمريكا التى رأيت
(٣) حلم الفجر (شعر) (٤) قافلة الرقيق (شعر)




22
Bibliotheca Alexandrina
0394531